والعصر
﴿إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾
إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر

الشَّيخ طلال الجمري

﴿إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾

محفوظة جميع الحقوق

هوية الكتاب:

* **الكتاب:** والعصر (إنه لقسم لو تعلمون عظيم).
* **المؤلف:** الشيخ طلال الجمري.
* **الطبعة:** الأولى: ١٤٤٧هـ/ ٢٠٢٦.
* **الإخراج الفني:** الكليم جرافيك:

mohd.he@gmail.com
+973 36577227

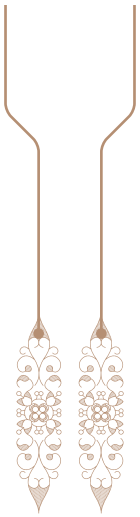

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

صَدَقَ اللهُ العَلِيُّ العَظيم

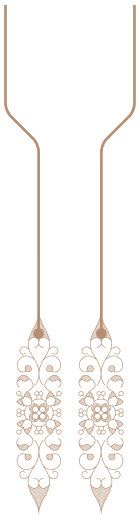

إهـــداء

إلى من غاب نوره عن الأبصار، وما غاب عن القلوب،

إلى بقيّة الله في أرضه، الإمام المهدي بن الحسن (عجّل الله فرجه الشريف).

أيّها المنتظر الذي يسكننا...

لا أملك أن أراك، لكنّي أبحث عنك في كل معنى يتلألأ في كتاب الله، وفي كل آية تتكشّف عن وعدٍ، أو نداءٍ، أو رجاء.

وقفتُ عند سورة العصر، ولم أستطع أن أفصلها عنك؛ شعرت كأنها تتحدث عن زمانك، عن غيبتك، عن الامتحان الطويل، عن الصبر الممتدّ من جيل إلى جيل... عن تلك القلّة التي تصرّ أن تبقى على العهد، وتبني إيمانها على انتظارك.

هذا الكتاب محاولة لاكتشاف ظلالك في كلمات الوحي، وسعيٌ خافت لرسم ملامحك بين حروف السورة التي أقسم بها الله... وكأنّها رسمت شروط النجاة، لكنها تركت المفاتيح بيدك،

فلا يُفتح باب منها إلا إن كان لك فيه إذن.

يا ابن الحسن، لم يكن ما كُتب هنا بحثًا باردًا، ولا تأملًا ذهنيًا جافًا؛ بل كان وجيب قلبٍ يستنجد بك، في هذا العصر الذي ضلّ كثيرون فيه الطريق، واختلطت على الناس الخرائط، وباتت النجاة مطلبًا تائهًا.

اللهم، إن كانت هذه الصفحات بضع قطراتٍ من نهر الانتظار، فاجعلها من الزاد، وإن كان فيها شيء من الصدق، فتقبّله، وإن كان غير ذلك، فاستره بسترك الجميل.

واجعل يا رب هذا «**العصر**» بداية لنهار لا ليل بعده، واملأ به قلوبنا يقينًا، وأقدامنا ثباتًا، ووجوهنا نورًا نلقاك به، ونحن ننتظر الحبيب الغائب، لا نكلّ ولا نملّ.

اللهم عجّل لوليّك الفرج، واكتب لنا أن نكون من جنوده، وأن نُدرك ظهوره، ولو بدعاء صادق، أو دمعٍ خفيّ، أو سطرٍ كتبناه شوقًا إليه.

من عبدٍ ينتظر مولاه

ويكتب شوقه بين سطور سورة العصر

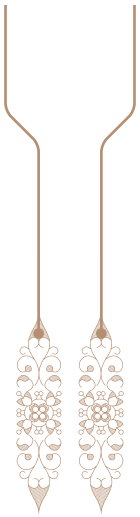

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرًا.

القرآن الكريم ليس كتابًا يُقرأ فحسب، بل هو حياة تنبض في كل حرف، ونور يُضيء عتمة الطريق، وروحٌ تُبعث في القلوب كلما استظلت بظلال آياته. هو الوعد والبيان، والعهد والبرهان، من تمسّك به اهتدى، ومن أعرض عنه غرق في لجج الخسران. فيه من الهُدى ما يشفي صدور المؤمنين، ومن الحكمة ما يُقيم اعوجاج النفوس، ومن الرحمة ما يلامس الأرواح التائهة في دروب الزمان.

لقد منّ الله علينا بالقرآن، ومنّ علينا بمحمدٍ وآله صلوات الله وسلامه عليهم، فكيف نرضى أن نمرّ على آياته مرور الغافلين؟ أو نُهمل تلاوته وتدبره وكأنه لا يُعنينا؟ ألسنا نحن من خاطبهم الله بقوله: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ**﴾؟ ألسنا نحن من يسأل الهداية

في كل ركعة، ولا يهتدي إن لم يقف عند كلام الله جلا وعلا وقفة المتأمل المتعظ؟

وعطفًا على سورة العصر فهي ليست مجرد بيان عن خسران الإنسان، بل هي صرخة هدى، تنادي في كل عصر: أن النجاة لا تُنال إلا بالإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. وكأنّ كل كلمة فيها كانت تُتلى عليّ في حضرات الأنوار عليهم السلام، تلامس وجداني، وتوقظ في قلبي أسئلة ما كنت أسمعها من قبل.

وقد نظرت في هذه السورة المباركة من زوايا متعددة، وتأملتها عبر عشرة أبواب، عسى أن أُحسن الطرق، وعسى أن يُفتح لي شيء من الفهم، وأن أجد فيها، ولمن قرأ معي، نفحة هدى، وبارقة نور، وجرعة رجاء.

فإن وُفقت، فبفضل الله، وببركة أوليائه، وإن قصّرت أو أخطأت، فالعذر إلى الله، وإليه الرجوع والمآب.

والحمد لله أولًا وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا،

والصلاة والسلام على من بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة، محمد وآله الطاهرين، صلاة لا تنقضي.

الباب الأول: القسم

- ما هو معنى القسم.
- لماذا يقسم الله سبحانه وتعالى.
- وما هو المقسم به.

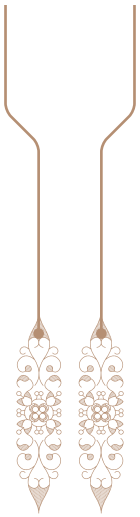

أولًا: ما معنى القسم؟

إذا تأملنا في الجذر اللغوي لكلمة «**القَسَم**»، وجدناها مشتقة من مادة (ق-س-م)، وهي تدور في معناها الأصل حول التقطيع والتوزيع. فالقول: «**قسم الشيء قسمًا**» يُقال لمن جزّأه وفصّله. ومن هذا المعنى المادي الحسيّ، انتقل الاستعمال إلى الجانب المعنوي، حيث صار «**القَسَم**» يدل على الحلف، لأن الحلف – بطبيعته – يفصل القول، ويفرزه عن التردد، ويقطعه عن التوهم، ليُثبّت معناه في مقام الجزم، ويجعله بمنزلة الموثوق الذي لا يُرتاب فيه.

فالقسم إذًا ليس مجرد لفظ، بل هو التزامٌ يُنشئ في النفس شعورًا بالعهد المؤكد، وتصديقًا داخليًا يتكئ على اليقين. إنه نبرة قوية، تُقال حين لا يكفي القول العادي، ويُستحضر فيه ما يُشعر بالعزم والثقة والجديّة.

وفي العُرف الإنساني، ما زال القسم يُستخدم لا باعتباره زينة للحديث، بل بصفته صكًا من نوع خاص، يُذَكّر المخاطب بوجود

شيء معظَّم يُستَشهد به، أو يُستعان به على إظهار الصدق. إنه موقف تعبيري له قداسة وجدانية، يضع الكلمة في ضوء جديد، ويمنحها ما يشبه الختم المعنوي.

فالإنسان حين يُقسم، لا يكتفي بكلامه، بل يستدعي ما هو أكبر من ذاته ليكون شاهدًا أو ضامنًا أو مكملًا لنيته. وهذه الحاجة تنبع من طبيعة الإنسان التي تميل إلى طمأنة الآخر، وإلى إثبات الجدية أمام الغير، خصوصًا حين يكون القول مصيريًا أو مشحونًا بالعاطفة أو الالتزام.

ولذلك، ظل القسم من أقوى أساليب التوكيد في التعبير البشري، لما له من أثر عميق في النفوس: فهو يُربك الشك، ويستنهض الثقة، ويمنح القول نبرة مختلفة.

لكن، إذا كان هذا هو حال القسم في لغة الناس، فماذا عن القسم في كلام الله عزّ وجل؟

هل يُعقل – والعياذ بالله – أن يكون الله محتاجًا إلى ما يُثبت به قوله؟!

إن الجواب واضح لكل من يعرف عظمة الله وتنزّهه: لا.

فالله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى أن يُؤكّد قوله، لأن قوله حق في ذاته، لا يعلوه بيان، ولا يحتاج إلى دليل. أمره نافذ، وخبره صادق، ووعده حق لا يتبدل. فليس في ذاته ما يحتاج إلى تقوية، ولا في كلامه ما يفتقر إلى شاهد أو قسم.

ومع ذلك، فإننا نقرأ في القرآن الكريم أقسامًا كثيرة، بل وافتتاحات لسور بألفاظ القسم:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، ﴿وَالضُّحَى﴾، ﴿وَالنَّجْمِ﴾، ﴿وَالعَصْرِ﴾، ﴿وَالفَجْرِ﴾، ﴿وَالنَّفْسِ﴾، وغير ذلك كثير. فهل هذا تكرار لعادة بشرية؟ هل في ذلك ما يوهم الحاجة إلى التوكيد؟ كلا.

بل إن الله، جلّ جلاله، يخاطب الإنسان بلغة يعرفها، وأسلوب يألفه، ونغمة تطرق سمعه وتستميل فكره. فالقَسَم الإلهي ليس من باب التأكيد لذات المعنى، بل من باب الرعاية للمتلقّي، والتنبيه له على أن ما سيُقال بعد هذا القسم عظيم الشأن، جليل القدر، يستحق الإصغاء والتدبر.

والقسم في القرآن ليس مجرّد أسلوب بلاغي يُقصد به التجميل، بل هو نافذة يُطِلّ منها القارئ على المعنى المقصود بنوع من التهيئة النفسية. فحين يُقسم الله بشيء، فإنما يُكرّم هذا الشيء، لأنه لا يُقسم إلا بعظيم، ولا يُستشهد إلا بما له منزلة رفيعة في الخلق أو في المعنى.

ثم إن المقسوم عليه غالبًا ما يكون من ركائز العقيدة، أو مسارات الهداية، أو مواقف المصير. لذلك، فالآية التي تبتدئ بالقسم، كثيرًا ما تكون بوابةً إلى موضوع بالغ الأهمية، لا يصح أن يُطرح دون تمهيد عاطفي ومعنوي، يستدعي الحضور الكامل للقلب والعقل.

فإذا قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾، فهو لا يُقسم بزمن عابر، ولا بساعة تمضي، بل يُقسم بمرحلة من الدلالات الكثير الكثير، مشحونة بالرسائل، كأنها نداء موجه للإنسان ليعرف موضعه من هذا الزمن، ويُبصر كيف تنقضي لحظاته، وكيف يُوزن عمله فيها.

فالقسم، في مثل هذا الموضع، ليس مجرد افتتاح للسورة، بل هو مفتاح لباب، وإضاءة لطريق، وجرس إنذار لا يوقظه إلا من وعى ما وراء الكلمات ومن لمن امتحن الله قلبه بالإيمان.

أما نحن اللذين يتحجبنا ذنوبنا، ويزعزع مواقفنا ضعف يقيننا، فقد لجأت نفوسنا على الحاجة إلى ما يُثبت صدقنا، ويقوّي حجتنا، ويدفع عنّا تهمة الكذب أو التردد. نُقسم كثيرًا، لأن الثقة بين الناس ليست على إطلاقها، بل تحتاج إلى دعم وتأكيد، وشيء من الرمزية أو التعظيم. ولهذا، غدا القسم جزءًا من جنبات حياة الإنسان في كل ثقافته، له في كل لسان صورة، وفي كل حضارة بصمة، يختلف شكله، لكن معناه العميق واحد:الإنسان يريد أن يُؤخذ على محمل الجد.

وإذا أردنا أن نتأمل في سرّ اختيار الأشياء التي يُقسم بها الله في القرآن، فإننا سنُدرك أنها ليست عشوائية، ولا قائمة اعتباطية من المفردات. فحين يُقسم الله بالسماء، أو بالشمس، أو بالليل، أو بالنفس، فإنما يُقسم بما يشهد له بالخلق والتدبير، وبما يحمل من رمزية وجودية تهزّ القلب وتفتح العقل. وكأن القسم في القرآن لا يُستعمل إلا حين يتّصل أمر المقسوم به بعقيدة التوحيد، أو بسنن

الهداية، أو بمصير الإنسان.

تأمل مثلًا قوله تعالى: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ**﴾.

إنه قَسَمٌ بمظاهر كونية كبرى، ليُمهد الطريق لفكرة محورية: اختلافات السعي بين الناس، وتفاوت مصائرهم بحسب نواياهم وأعمالهم. وكأن الكون كلّه، في دورته وتعاقبه وتكوينه، شاهد على هذا التفاوت وهذه الاختلافات التي يعيشها البشر.

فما من قَسَم في القرآن إلا وهو جسر موصل إلى معنى بالغ الأثر، وكثيرًا ما يكون هذا المعنى مما تنغلق عليه العقول إذا قُدّم مجرّدًا. فالقَسَم في هذه المواطن يُشبه طرقًا على باب القلب، أو جرسًا يوقظ الانتباه، ثم يُستتبع بحكمة أو تقرير أو تحذير، يكون له وقعه الخاص لإحياء الضمائر وإنعاش القلب وتنبه العقول.

ومن تأمّل كيف ترتبط أقسام القرآن بخطابه العقائدي، وجد أن كل قَسَم يأتي في سياق توكيد عقيدة أو توجيه مصيري. فمثلًا، حين يُقسم الله بـ«**العصر**»، فإنما يريد أن يُقيم الحُجّة على الإنسان في زمنه، ليقول له – بعد القسم – ما يختصر به مصيره كله: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾. وهذا النوع من البيان لا يُكتفى فيه بمجرد الإخبار، بل يُؤكَّد بالقَسَم، لأن ما بعده ليس مجرد حقيقة فكرية، بل حقيقة وجودية تتصل بمصير كل واحد منّا.

فالقَسَم هنا ليس مَدخلًا بلاغيًا فحسب، بل هو إعلان طارئ

عن أهمية الكلام الآتي، وهو أيضًا استدعاء لحالة من التهيئة الذهنية والنفسية والعقلية ايضاً:

تنبّه، فإنك على موعد مع قضية العمر.

وإذا تأملنا، وجدنا أن القسم في القرآن يختفي من المواضع التي يكون فيها الخطاب مباشرًا للقلوب المؤمنة، التي لا تحتاج إلى إيقاظ، ولا تنتظر شاهدًا خارجيًا لتُصدّق. لكنه يبرز حين يكون السياق فيه تذكير أو إنذار أو تقرير لعقيدة قد تُجحد، أو حقيقة قد تُغفل. وكأن القَسَم أداة رحمة، يُساق بها المعنى الجليل إلى نفس قد أثقلها الغفلة، أو اعتراها التردد.

وهذا يُعيدنا إلى نقطة مركزية: القَسَم في كلام الله ليس نقصًا، بل هو عناية.

وليس تأكيدًا لحاجة، بل توجيه للإنسان الذي خلق الأكوان لاجله وسخرها له.

إنه من أعظم مظاهر رحمة الله بكلامه، إذ لم يُخاطبنا من علٍ، بل كلّمنا بما نفهم، وقرّب إلينا المعنى بما نألف.

ثم إن تأمل القسم يكشف عن أمر آخر: أن الأشياء التي يُقسم بها الله، هي أيضًا دعوة للتفكر. فالله لا يُقسم إلا بعظيم، وهذا يُشعرنا بعظمة الأشياء التي يُقسم بها: السماء، الفجر، الشمس، الليل، النفس...

إنه يُلفتنا إلى الكون، لا لنُعجب به فحسب، بل لنتّخذ منه مرآة

نُبصر فيها أنفسنا، ونُدرك موقعنا من نظام الخلق. فالقسم يحمل في طيّاته رسالة روحية عميقة:

انظر، تدبّر، قِف عند هذا المشهد، فإن وراءه سرًّا.

ولعل هذا هو سرّ اختيار القسم كمقدّمة لكثير من سور القرآن الكريم، لأنه لا يُلقي المعنى فجأة، بل يُهيّئ له، ويصوغه في جوّ من التأمل والرهبة، ليولد المعنى في قلب القارئ لا كفكرة مجرّدة، بل كحقيقة مفعمة بالخشوع.

والإنسان، حين يستمع إلى قَسَم في كلام الله، لا بد أن يتغيّر شعوره. لأن القسم في القرآن ليس زخرفًا تعبيريًا، بل موقفٌ من الموقف، ونداء من العليّ الأعلى إلى من في هذه الأرض. وكلما ازداد إيمان العبد، ازداد توقيره لهذا النوع من البيان، وازداد يقينه بأن ما بعد القسم، ليس مما يجوز الإعراض عنه، ولا مما يُؤخذ كغيره من الأخبار.

فحين يقول تعالى: ﴿**فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ**﴾، فإنها آية ينبغي أن تُقرأ بالوجدان قبل اللسان، لأنها تقطع كل طريق للشك، وتغرس في القلب نور التصديق.

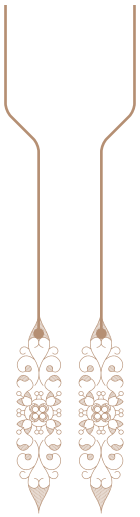

ثانياً: لماذا يُقسم الله سبحانه وتعالى

إن القسم في القرآن الكريم ليس مجرد عنصر بلاغي يجمّل الأسلوب، بل هو ظاهرة قرآنية ذات دلالات عقائدية وتربوية وفكرية راسخة، تستدعي التأمل، وتدعو إلى تدبّر المقاصد التي تقف خلف كل قَسَم، وكيفية توظيفه في سياق الهداية الربانية.

لقد تنزّل القرآن على بيئة لغوية مشبعة بثقافة القسم، بيئة تُقدّس الحلف، وتراه من أدوات التوكيد الفاعلة في تثبيت المعنى وترسيخ الصدق، سواء في الخُطب، أو الشعر، أو حتى التعاقدات والعقائد. كان القسم في المجتمع الجاهلي أشبه بلغة ثانية للنفوس، يُستدعى عند كل موقف فيه تحدٍّ أو إثبات أو دفع للريبة.

فالشاعر كان يُقسم بالسيف والدم والقبيلة، تأكيدًا للولاء والانتماء، واستنهاضًا لمشاعر العصبية والكرامة.

والكاهن يُقسم بالليل والريح والنجوم والبحر، ليُلبس كلامه ثوب الغموض، ويوهم مستمعيه بهيبة ما يقول.

والفارس يُقسم بخيله وسيفه ومغامراته، ليبثّ في الناس روح

الحماسة، ويُرهب خصومه بعزمه وجسارته.

وفي خضم هذه الثقافة القائمة على القَسَم البشري الذي كثيرًا ما يكون مدفوعًا بالهوى، أو مسكونًا بالغرور، أو مُستخدمًا كوسيلة للتمويه، جاء القَسَم الإلهي في القرآن ليُعيد لهذه الأداة موقعها النقي واستعمالها المنطقي كيفما تجب ومتى تجب ولماذا تجب، ويطهّرها من أدران العبث، ويُعيد توجيهها من التزوير إلى التنوير، ومن الادّعاء إلى البيان، ومن الهوى إلى الهُدى.

إن الله جلّ جلاله لا يُقسم لحاجة منه إلى تأكيد صدقه، فصدقه ذاتي لا يتوقّف على دليل، وكلامه نور لا يحتاج إلى مشعل خارجي يُضيئه. وإنما يُقسم لحاجة في الإنسان، ذلك الكائن الذي تضعف ذاكرته، وتغلب عليه الغفلة، وتُشتّت ذهنه الشهوات، فلا ينتبه إلى الحق إلا إذا دُقّ جرس في قلبه، أو هزّه نداء من جبار السماوات والأرض يوقظ فطرته، ويستفزّ عقله ليرى ما خفي، ويسمع ما غفل عنه.

ولهذا، كان القسم الإلهي نوعًا من الرحمة البيانية، إذ يخاطب الله الإنسان بلغة يألفها، وأسلوب يشدّ سمعه، لينبّهه إلى أن ما بعد هذا القسم، ليس أمرًا عابرًا، بل قضية تستحق أن يقف عندها بكل كيانه.

فالله يُقسم بما شاء من مخلوقاته – من السماء ذات البروج، إلى الشمس وضُحاها، إلى مواقع النجوم، إلى النفس وما سوّاها

– لا لتعظيمها لذاتها، بل لتعظيم دلالاتها، ولإثارة الانتباه إلى ما تختزنه من إشارات على التوحيد، والعدل، والبعث، والمصير.

فالقَسَم في القرآن ليس زينة أسلوبية، ولا أداة بلاغية لتجميل الكلام، بل هو جزء من استراتيجية قرآنية لتثبيت الحق، وكشف الغفلة، واستنهاض الوعي البشري. إنه قَسَم يفتح العين على ما كان مُهمَلًا، والقلب على ما كان غافلًا، والعقل على ما كان مشتّتًا بين الجمود والغفلة والنسيان.

ومن هنا، نفهم أن القسم في القرآن لا يُستخدم إلا حين يكون الموضوع على قدرٍ عالٍ من الخطورة والضرورة، حين يكون الكلام مصيريًّا، يخصّ الإنسان في وجوده، وفي غايته، وفي علاقته بربه ومصيره في حياته في دنياه وآخرته إنه توكيد فوق العادة، لقضية لا تقبل الإهمال ولا التأجيل ولا التسويف ولا أن يمر عليها مرورًا عابرًا.

وحين نقرأ قوله تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾، ندرك أن هذا ليس قسمًا بزمن عابر، ولا بلحظة من اليوم تُذكر لتحديد الموعد، بل هو قَسَم بالعمر كلّه، بالحياة في صيرورتها، بالزمن في جريانه، بالحاضر الذي يتصرم، والمستقبل الذي يلوّح، والماضي الذي يُحاسَب عليه العبد. نعم وقد يكون الحساب دنيويًا وقد يكون أخروي والمستجار بالله من التضييع والإهمال.

فالله يُقسم بالعصر، لأنه وعاء كل شيء: وعاء الفكر، والعمل،

والاختيار، والتوبة، والضياع، والنجاة. يُقسم به ليقول للإنسان: إنك في خسارة محققة، ما لم تستثمر وقتك في إيمان ينهض بك، وعملٍ صالح يُزكّيك، وتواصٍ بالحق يُعيدك إلى جادة الصواب، وتواصٍ بالصبر يحميك من الانهيار.

فليس الخسران هنا خسران المال، ولا الجاه، ولا المكانة الاجتماعية، بل هو خسران النفس، وضياع الهدف من الخَلق، وفقدان الفوز الأبدي. إنه الخسران لوحدك أيها الإنسان، الذي إذا حلّ بك، لم تُجدِ معه أرباح الدنيا، ولا عوّضته عن فوات النجاة.

ومن هنا، نفهم أن هذا التحذير الجليل ما كان ليُعلَن إلا في سياق قَسَمٍ إلهي، لأن النفس لا تستفيق دائمًا بالكلمة، لكنها تهتز حين يُقسِم الحق، وتوقن حين يأتي البيان مصحوبًا بشهادة ربّانية، وكأن الله يقول: انتبه، فإنك على مفترق طرقٍ في المصير وخارطة طريق في المسير ونهج لكل من له قلب بصير.

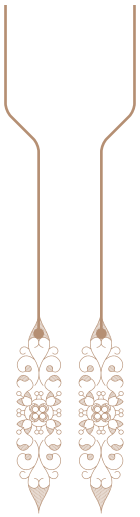

ثالثاً: ما هو المُقسَم به؟

حين نقرأ في القرآن الكريم آيات تحتوي على القسم، نعلم أن هذا القسم ليس مجرد كلمة تُقال أو اسم يُذكر عبثًا، بل هو مفتاحٌ يفتح لنا أبوابًا واسعة لفهم المعنى الكامل الذي يُراد توصيله في السورة أو الآية. فالقرآن كتاب المعجزات، كل حرف فيه محسوب ومقصود، لا يُترك شيء دون حكمة أو هدف سبحانه وتعالى عن ذلك علو كبير.

تتعدد الأقسام التي جاء بها القرآن حسب الموضوعات التي أراد الله سبحانه أن يلفت نظرنا إليها، فهناك أقسام للتنبيه والتحذير، كالقسم بالعصر أو الضحى أو الفجر، التي تحمِل في طياتها دعوة جادة إلى التفكر في الزمن والحياة ومسؤولياتنا كبشر.

وفي أحيان أخرى، يأتي القسم ليؤكد صدق الوحي وحكمة الخلق، كالقسم بالقرآن أو السماوات والأرض، ليقول لنا إن هذه الأمور ليست مجرد ظواهر عابرة، بل هي علامات على حكمة الله وعلمه المطلق وتدبيره في كل الأحوال.

وأحيانًا، يكون القسم لبيان عظمة الله وصفاته، مثل القسم بالملك أو القمر أو النفس التي كملت خلقها، لتذكيرنا بجلال الخالق وكمال صنعه دقة لطفه وسعه تدبيره.

وبما أن المُقسَم به يحمل كل هذه الدلالات العميقة، فإننا نجد فيه مرايا لا مرآة وزوايا لا زاوية وجهات لاجهة، تعكس عظمة الموضوع الذي يُقسم عليه. وعندما ينطق القران بقول الله تعالى بقوله: ﴿**وَالْعَصْرِ**﴾، فليس الأمر مجرد إشارة إلى وقت من اليوم، بل «**العصر**» رمز يشمل كل ما يتعلق بالزمن الذي يحيط بالإنسان في أبعاده المختلفة.

فالعصر هو المقياس الذي تُقاس به حياة الإنسان، هو الساحة التي يُختبر فيها صبره وعمله وعطائه وحياته، هو الحقبة التي تحمل معها فرصًا وتحديات، وهو الفرصة التي تُمنح لكل إنسان ليصلح حياته ويصنع مستقبله وكلما يحتاج إليه هو تنبيه قلبه بالتدبر والتفكر.

إذا تأملنا في كلمة «**العصر**» من الناحية اللغوية، نجد أنها تعني العصر بمعنى الضغط والعجلة، وكأن الزمن يعصرنا بتقلباته المتسارعة، لا نملك له إلا أن نمضي معه، وهذا يدفعنا إلى إدراك أننا تحت ضغط مستمر، وأن غفلتنا عن الزمن ليست خياراً، بل خسارة فادحة.

من الناحية البلاغية، يحمل القسم بالعصر نغمة خاصة ترفع

من مستوى الخطاب كما يقول ويعبر بها البلاغيون، فتشعر وكأن الزمن يدق ناقوس الخطر وليس أي خطر بل هو خطر الحياة التي تشبث وتعلق بها هذه الإنسان، ويحثك أيها الغافل أيها الإنسان الضعيف، عليك أن تكون في حالة يقظة دائمة، لأن كل لحظة تمضي تمثل فرصة ومسؤولية لا تحتمل التأجيل والتسويف.

أما على المستوى الروحي، فيُجسّد العصر الرحلة التي يقطعها الإنسان بين ميلاده وموته، بين ابتلائه وامتحانه، بين نجاحه وفشله، والقرآن يحذرنا من الخسارة التي تنتج عن إهمال هذه الرحلة المصيرية.

وهنا تظهر حكمة الله في اختيار هذا القسم، فهو يعلم ضعف الإنسان وغفلته، ويعرف أن الإنسان بحاجة إلى تنبيه قوي يحرك وعيه، ويحفزه على التدبر والتفكر، ويجعل قلبه ينبض بمسؤولية الزمن الذي سوف يحدد مصيره والى أين يتجه.

لذا جاء القسم بالعصر ليقول لنا إن هذه اللحظة ليست عابرة، بل هي جوهرة ثمينة في حياتنا، وأن كل دقيقة تمر هي اختبار ومسؤولية، وأن التقصير فيها يعني خسارة عظيمة لا يمكن تعويضها.

هذه هي الحكمة العميقة من القسم، الذي لا يهدف فقط إلى توصيل معلومة، بل إلى إيقاظ الضمائر، وتحريك العقول، وتجديد العزائم، ليعيش الإنسان بحكمة ووعي كاملين وفق ما تقتضيه مصلحة هذه الإنسان الذي لا يعرف مصلحته.

وبناءً عليه، لا بد لنا أن نولي المُقسَم به دراسة معمقة، نغوص فيها بعلوم اللغة والتفسير والبلاغة والعقيدة، لا قياس بعقولنا بل مستندين إلى ايات بينات ودلائل واضحات بينها وفصلها وأجلى معانيها اهل القران وخاصته الراسخون فيه بالعلم لا بالتكهل والتخرص، لنصل إلى فهم متكامل يغير نظرتنا للحياة ويهدينا إلى النجاح الحقيقي في الدنيا والآخرة وهذا هو مصادق قول الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله حيث أوصى بالثقلين كتاب الله وغترته اهل بيته عليهم السلام المتمسك بهم ناج والمتخلف عنها في خسران تام.

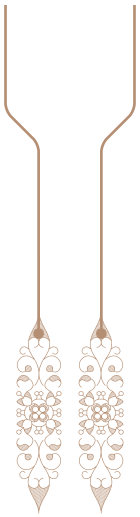

في عمق معنى «العصر» في سورة العصر

حين تأملنا كلمة «**العصر**» التي ابتدأت بها هذه السورة المباركة، لم نكن أمام مجرد لفظ يُتلى، بل أمام باب فُتح على مصراعيه على عالم من المعاني المتشابكة التي تمتد من ظاهر اللغة إلى أغوار الوجود الذي لا يبين إلا باهله أهل البيت صلوات الله عليهم. فالقسم في القرآن الكريم، بطبيعته، لا يأتي اعتباطًا، ولا يُذكر لمجرد التزيين أو التشويق، بل يُستدعى حين تكون المسألة في غاية الجِدّ، والمضمون في منتهى العمق، والحالة في جدية الخطورة التي لا تغافل.

من الناحية اللغوية، «**العصر**» يشير إلى الزمن المضغوط، الزمن الذي لا يُمهل، ولا يتوقف، ولا يلتفت إلى من تخلف أو تهاون فيه وبه. هو كاليد التي تعصر كل ما بين قبضتيها؛ تعصر الإنسان، أحلامه، وقته، وفرصه، حتى لا يبقى له إلا ما أدركه وفاز به. إنه الزمن الذي لا ينتظر أحدًا، والذي فيه تُسكب كل تجارب الإنسان، فينجح فيه أو يضيع، يصلح فيه أو يضل، يفوز فيه أو يخسر.

أما من الناحية التفسيرية، فالعصر ليس فقط إطارًا زمنيًا، بل هو الميدان الذي تدور فيه معركة الإنسان مع نفسه، مع هواه، مع قِصر الأمل، ومع طول الحساب. هو الزمن الذي يُوزن فيه العمل، وتُكشف فيه الحقائق، وتُبنى فيه المصائر. إنه الحياة بكل امتدادها وما فيها من تقلبات وتجارب وامتحانات.

وعندما نأتي إلى البعد البلاغي، فإن القسم بالعصر ليس مجرد وسيلة لجذب انتباه السامع، بل هو صدمة بلاغية توقظ الغافل، وتُحدث في الروح أثرًا يُشبه التنبيه المفاجئ الذي يهزّ النفس من سباتها. القسم هنا يحمل نبرة عالية، كمن يدق على باب القلب بعنف، ليقول: «**افتح عينيك، الوقت يمر، والفرصة لا تتكرر**».

أما إذا نظرنا إلى «**العصر**» من الزاوية الروحية، نجده يمثّل تلك الرحلة الطويلة التي تسير فيها النفس بين الشدّة والرخاء، بين السقوط والقيام، بين الغفلة والانتباه. هو الميدان الذي يُختبر فيه الإيمان، ويظهر فيه صدق العمل، ويُعرف فيه من صبر ومن انهار. من ثَبت على طريق الحق، ومن استسلم لدروب الغواية، ومن باع ومن اشترى في هذه الدنيا وبها الأخرة.

ثم هناك المستوى الآخر، حيث تطرح كلمة «**العصر**» أسئلة كبرى على العقل والروح معًا: من أنا؟ لماذا أُمنح هذا الزمن؟ ما معنى النجاح؟ ومتى تكون الخسارة؟ إن الخسران الذي تُحذر منه السورة ليس خسران المال أو الجاه، بل خسران المعنى، خسران الكرامة،

خسران الطريق إلى الله، خسران الحياة بكل ما للحياة من معنى.

واللافت أن الله تعالى، بكل جلاله، لم يُقسم بهذا العصر إلا ليخبرنا بحقيقة صادمة: أن الإنسان، بطبعه، في خسارة، ما لم يشدّ على قلبه بحبل الإيمان، ويملأ نهاره بعمل صالح كما سلكها الرساليون من أنبياء وأوصياء، ويسلك طريق التواصي بالحق، ويُربّي نفسه على الصبر. فليس مجرد أن تمضي أيامك هو نجاح كما يزينها لك الشيطان ووساوس النفس، بل أن تمضيها عامرًا بالإيمان والعمل الرسالي والتواصي هو وحده النجاة.

هذا القسم، بهذا الشكل، ليس مجرد افتتاح لسورة، بل هو ناقوس خطر، وتذكير موجع بأن أعمارنا لا تنتظر، وأننا نخسر في كل لحظة لا نستثمرها في الحق والخير بكل معانيه وتوجهاته وطرائقه. والعجب أن الله جعل من «**العصر**» مرآة نرى فيها ملامح حياتنا: هل نمضي بها نحو النور أم نحو الفقدان؟.

ومن هنا، يظهر جليًا أن فهم معنى «**العصر**» هو أكثر من مجرد شرح لكلمة، بل هو فهم لرسالة من الله جل وعلا، وهو دعوة للاستيقاظ من سبات النفس، والتوجّه نحو البصيرة، قبل أن يُطوى السِفر وتُغلق الصحائف ويقول الاخسرون ربي رجعون فلا مجيب.

ولذلك، فإن التوقف عند هذه الكلمة ليس ترفًا لغويًا أو تأملاً وقتيًا فقط، بل هو ضرورة إيمانية، ومحطة تربوية، ومنهجًا رساليًا،

وبداية رحلة نحو إعادة النظر في طريقة عيشنا، ومقدار وعينا، واتجاه قلوبنا. فبقدر ما نفهم «**العصر**»، نتمكن من تغيير المصير، ونخرج من ضيق الغفلة إلى سعة الوعي، ومن خطر الخسران إلى أمان الفلاح.

الباب الثاني: العصر

- أولاً: معاني كلمة العصر.
- ثانيـًا: أهمية كل معنى بالنسبة للإنسان.
- ثالثـًا: مسئولية الإنسان إتجاه المعنى.

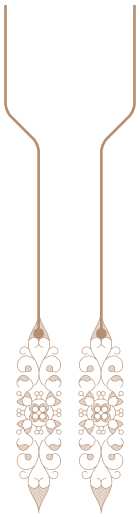

أولًا: في مدار «العصر»... بين اللغة والوحي

ما من كلمة في كتاب الله جل وعلا إلا وتحمل من الدلالات والمعاني ما يجعل العقول والقلوب في حالة بحث دائم وتأمل عميق، وكلمة «**العصر**» واحدة من هذه الكلمات التي وقف عندها المفسرون طويلاً، متأملين في مدلولها، متفكرين في عمقها، غير أنهم لم يُجمعوا على تحديدٍ واحدٍ جامعٍ مانع، وذلك لما تحمله هذه الكلمة من اتساع في الاستعمال، وتنوّع في التفسير، ومرونة في التأويل. فهي ليست مجرد ظرف زماني، بل تتداخل فيها الأبعاد اللغوية بالشرعية، والروحية بالتاريخية، ما يفتح أمام القارئ أبوابًا عديدة للتدبّر والتأمّل.

ولمّا كانت هذه الكلمة هي محلّ قسم من الله تعالى، في مفتتح سورة عظيمة، علمنا يقينًا أن المراد بها ليس شيئًا عابرًا، بل إن القسم بها يكشف عن منزلتها وأثرها في النفس والوجود. وما كان الله ليقسم إلا بأمر عظيم، فكيف إذا كان هذا القسم يسبق إعلانًا هائلًا: أن الإنسان في خسر! إنها صدمة توقظ الوجدان، وصيحة توقظ

الغافلين، وكأنها صفعة على وجه المرجفين تذكر الإنسان بأنه على شفا الانهيار إن لم يفيق من سبات الغفلة التي يصيرها له الشيطان حياة وما هي بحياة بل هي الخسران المبين. إن مجرّد تلاوة الآية الأولى من هذه السورة كفيل بأن يُحدث في القلب رجّة ورجفة، وفي العقل يقظة، وفي الروح رجفة تسأل: أين أنا من هذا الإنذار؟.

من هنا، تتجلّى أهمية التعمّق في معنى «**العصر**»، ليس ككلمة لغوية فحسب، بل كقسم قرآني مفصلي، جاء في سياق خطاب إلهي للإنسان المهدّد بالخسران، ليلفت انتباهه إلى ما هو متفلت من بين يديهن الحياة ليس بمعنى العمر بل بمعنى الحياة وكل ما يكتنفها من معنى عميق في وعي الإنسان. إنها ليست دعوة للمعرفة السطحية، بل لولوج أبواب البصيرة في القران، حيث تتجلى بلاغة الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي ما فتئ يبين للناس سبيل الحق والحقيقة، ويضعهم أمام مسؤولياتهم تجاه كلام الله جل وعلا، الذي هو المعيار الأبدي للهداية الخالدة.

وعلى هذا النهج، مضى أوصياء النبي صلوات الله عليهم وعليهم من بعده، أئمة الهُدى ومصابيح الدجى، والعروة الوثقى، الذين جعلوا القرآن محور دعوتهم، ومرجع أحكامهم، وميراثهم الأعظم، ووصيتهم الأولى. بل إنهم في لحظات احتضارهم كانوا يوصون بتدبره وتفكره ليكون للطالب درب منيرة والراجين خير وسيلة، ويذكّرون بقداسته، وكأنهم يقولون لنا: هذا الكتاب لا يُترك، ولا يُؤجل، ولا يُبدَّل. وهو ثقل بدون لا مفر من الهاوية.

وبينما أقلب صفحات كتب التفسير قبل عكفي على كتابة هذه السطور، وجدت أن العلماء قد أوردوا عدة معانٍ لكلمة «**العصر**» وقبلهم ما ورد على لسان اهل البيت العصمة صلوات الله عليهم. يمكن تلخيصها في خمسة اتجاهات رئيسية، لكل منها ما يسنده من اللغة أو السياق أو الرواية. وقد أتناول هذه المعاني واحدًا تلو الآخر، لا لأجعلها من ضمن ترجيحي لأي المعاني اصبوا من الآن، بل لأفتح الباب للتأمل والربط، على أن نعود لما بينه اهل البيت عليهم السلام في خاتمة سطوري إلى ما يظهر لنا من كونه أقرب إلى مراد الله، بعد عرض الحُجج وتبيّن الأقول ونستمد من الله العون والسداد.

ولعل تعدد المعاني هنا ليس موطن تردد وتضاد، بل موضع بلاغة. فالقرآن كتاب يُخاطب العقول والقلوب، ويمنح قارئه تعددًا في طبقات الفهم، بحيث لا ينفد من كونه معين سلسبيل بالمعنى. وسورة «**العصر**» ـ رغم قصرها ـ تحمل من هذه الجهات ما يجعلها مرآة للزمن والروح معًا، ولهذا تستحق أن تكون محطّ اهتمام كل من أراد أن يعرف موقعه من الحقيقة ويطلب من الله البصيرة.

المعنى الأول: «العصر» كزمنٍ مفصليّ يُنذر بالتحول والانتباه

حينما تُتلى على أسماعنا هذه السورة، ويعلو صوت القسم: «**والعصر**»، نشعر بأننا أمام كلمة تختصر ما لا يختصر، وتفتح

أبوابًا تتجاوز مجرد الوقت المحدود المعروف باسم «**العصر**» في الشريعة. نعم، في ظاهره هو ذلك الوقت الممتد من بعد الظهر إلى الغروب، لكنّ هذا الظرف الزمني ليس بريئًا في القرآن. بل هو يحمل نداءً خفيًا، كأنما يقول: انتبه... الوقت يوشك أن ينفد.

العصر، بحسب الشريعة، وقت مشهود وعزيز، جعله الله وقتًا لصلاةٍ مخصوصة، عظّمها النبي صلى الله عليه وآله، وجعلها من العلامات الفاصلة في الإيمان، فقال: «**من صلى البردين دخل الجنة**». والبردان هما الفجر والعصر، وهما توقيتان يتقاعس عنهما الكثير، أحدهما في وقت الإقلاع، والآخر في وقت الهبوط. فأن تلتزم بصلاة العصر، في نهاية اليوم، يعني أنك ما زلت على العهد، رغم تعب الجسد وضغوط الحياة.

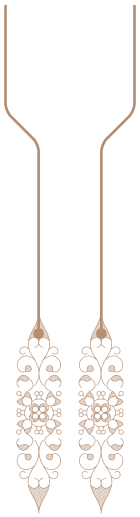

المعنى الثاني:عصر» كعملية اعتصار وجودي وضغط كوني:

حين يرنُّ في أذنك صوت السماء: ﴿**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾، تشعر أن الكلمات لا تنتمي فقط إلى عالم اللغة، بل إلى عُمق التجربة الإنسانية. ليس هذا قسمًا عابرًا، ولا تنبيهًا تقليديًا، بل هو صوتٌ مزلزل، يطرق أبواب الوعي طرقًا متكررًا، كأنّه يدعوك لأن تخلع عنك غشاوة العادة، وتنظر إلى الزمن لا كخلفية للأحداث، بل كفاعلٍ يضغط، ويُمحّص، ويُصفي.

في العربية، كلمة «**عَصَرَ**» ليست من الكلمات الرقيقة أو الحيادية. هي كلمة مشحونة بالإلحاح، مشبعة بقوة الإخراج من العمق. إنها لا تعبّر عن مجرد لمسة، ولا مجرّد مرور، بل عن قبضةٍ شديدة تُطبق على الشيء حتى لا تترك فيه قطرةً مخبوءة، ولا ذرةً كامنة، إلا ودفعتها إلى السطح. عصر الزيتون، عصر العنب، عصر الزهر... كلها صور حسيّة لعملية معقّدة، يُنتزع فيها النقيّ من الشوائب، ويُفصل الثمين من الغثّ، وتُستخرج الجواهر من الأغلفة.

لكن القسم الإلهي بـ«**العصر**» لا يقف عند المعنى الحسيّ، بل يأخذنا إلى ما هو أوسع وأعمق: العصر بوصفه فعلًا كونيًا يجري علينا نحن البشر. إن حياتنا – منذ الولادة وحتى الاحتضار – ليست إلا سلسلة من لحظات يُعصر فيها الإنسان، يُمتحن، يُضغَط، يُكشَف على حقيقته، ويتساقط من حوله الزائف، حتى لا يبقى في النهاية إلا ما كان جوهرًا خالصًا، ثابتًا، مقاومًا للزمن.

العصر، إذًا، ليس ظرفًا زمنيًا فحسب، بل حالة وجودية شاملة. فكلّ يوم يمر علينا هو عصرٌ جديد. كلّ موقفٍ نمرّ به، كلّ ألمٍ نتحمّله، كلّ تحدٍّ نواجهه... هو قبضةٌ من هذه «**المعصرة الإلهية**» التي لا تكفّ عن استخراج ما في دواخلنا. حين يُظلم عليك الطريق وتُبتلى، فأنت في عصر. حين يضيق صدرك، وتتزاحم عليك الهموم، فأنت في عصر. حين تُسلب منك الفرص، وتتلاشى حولك الأشياء، ويُطلب منك أن تبقى صادقًا، ثابتًا، مستمسكًا بما تؤمن به... فأنت في قلب العصر.

إنه اختبار صامت، ولكنه مستمر. لا يصدر صوتًا، ولكن نتائجه تصرخ في الوجود. إنه لا يُقاس بالساعة، بل بالنية. لا يُحسب بالدقائق، بل بما خرج منك وأنت تحت الضغط: هل خرج منك الإيمان أم التخاذل؟ هل سالت منك الرحمة أم القسوة؟ هل عصرتك الحياة فأخرجت منك الصبر، أم خرجت منها متبرمًا، ناقمًا، خاسرًا؟

والعجيب في هذا القسم، أنه لا يُفهم إلا حين تُجرّب، وحين

تعيش. لأن من لم يُعصر، لن يعرف معنى العصر. من لم يُمتحن، لن يشعر بمضمون الآية. ومن لم يسقط في لحظة ضعف، ثم يقف ثانية بقوة الإيمان، لن يدرك عظمة اللحظة التي تتجلى فيها حقيقة الخسران أو النجاة.

ومن هنا، نفهم لماذا كان القسم بـ«**العصر**» متبوعًا بتقرير لا لبس فيه: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾. إنه تقرير لا يحتاج إلى برهان، لأن الزمن ذاته يُبرهن عليه. الإنسان في خسران، لأنه يُستنزف في كل لحظة، لأن الساعة تعمل ضده، لأن الحياة تأخذ منه شيئًا فشيئًا، إما أن يحوّلها إلى ربحٍ بالوعي والعمل والإيمان، أو يدعها تمضي وهو غافل، فينتهي خاوي اليدين، رغم أنه مرّ بكل ما مرّ به غيره من فرصٍ وعصرٍ وضغط.

إذن، تأمّل: هل أنت ممن عصرتهم الحياة، فأخرجوا منها ما يرضي الله؟ أم ممن سحقهم العصر، فخرجوا منه أشباحًا للهوى، أو بقايا إنسان؟

«**العصر**»، في هذا السياق، ليس مجرد زمن، بل عملية استخلاص، فيها تُصفّى الأرواح كما تُصفّى الزيوت، وتُختبر المعادن كما تُختبر النفوس، ويُفرز الناجون من الهالكين، لا بصخب ولا بضجيج، بل بالصبر، والصدق، والإصرار.

وهكذا، حين تسمع القسم: ﴿**وَالْعَصْرِ**﴾، تذكّر أنك أنت المعنيّ، وأن ما تمر به ليس عابرًا، بل هو جزء من عملية إلهية

دقيقة، لا تهدف إلى سحقك، بل إلى تكميلك. إنها تعصرك... لتعرف ما فيك.

آلة الزمن التي تعصر الإنسان

نحن لا نتحكّم بالزمن. بل الزمن هو من يتحكّم بنا، يعصرنا دون أن نشعر، يمضي علينا لا كمن يعدّ اللحظات، بل كمن يستخرج منّا خلاصاتنا. في كل يوم، نفقد شيئًا. جزءًا من قوانا، من ذاكرتنا، من صفائنا، من ملامحنا الأولى. الزمن لا يكتفي بالمضي، بل يمرّ كالمعصرة، يأخذ من كل واحدٍ منا شيئًا، ويترك خلفه خلاصة، هي ما صنعناه، وما آمنا به، وما تركناه أثرًا في الآخرين.

وهنا يكمن سرّ القسم الإلهي: أن كل إنسان يُعصر، لكن البعض فقط هم من يخرجون من هذه العملية بشيء يستحق البقاء. البعض يذوب، يُستنزف، يُفرغ حتى لا يبقى منه إلا قشرة. والبعض الآخر، يُصفّى في هذا الضغط، فيخرج أنقى، أصفى، أكثر إشراقًا.

الله لا يُقسم بـ«**العصر**» لمجرّد التذكير بالوقت، بل ليوقظنا من الغفلة، ليقول لنا: «**انتبه! أنت الآن تُعصر. الزمن لا ينتظر إذنك. إما أن تُنتج جوهرًا نقيًّا من روحك، أو تذوب في الخسران.**» وهذا ما يجعل من السورة صرخة يقظة، لا وعظًا جامدًا.

الحياة كمصفاة، لا كعقوبة

المرض؟ ليس نقمة. الفقد؟ ليس نهاية. الفقر؟ ليس حظًّا عاثرًا. إنها كلها مراحل من مراحل العصر. كما أن المال والسلطة والشهرة ليست مكافآت، بل أدوات اختبار. الحياة تعصرك من جهتي النقيض: حين تُؤلمك، وحين تُغريك. في كلا الحالين، يجري اختبار هذا الإنسان الذي لا يحاول الانفكاك عن هذه الدنيا بل يدور في فلكها ما دارت شهواتها الزائلة فيها.

وهنا يظهر الفرق: هل ستصبر أم تنهار؟ هل سترقى أم تنغمس؟ هل ستتطهّر أم تستسلم؟ هذه الأسئلة ليست نظرية، بل مصيرية، تتكرر كل يوم. فكل لحظة تمرّ هي نقطة ضغط، كل موقف يُفرز شيئًا منك، يختبرك، يُقشّر عنك، حتى لا يبقى إلا حقيقتك.

العصر الآن: زمن الإيمان المعصور

في زماننا، نشهد كيف يُعصر الإيمان نفسه. تُعصر القيم أمام سطوة المادة، وتُعصر المبادئ أمام التملّق والراحة، وتُعصر العقيدة أمام هجمات الشبهة والتشكيك، وتُعصر الأخلاق في خضمّ الشهوات واللهو والمصلحة. من أراد أن يبقى نقيًا، بات وكأنه يمسك جمرة في يده فالمساك على دينه كالماسك على الجمر كما جاء في روايات آهل البيت عليهم الصلاة والسلام. أصبح الصدق سلعة نادرة، والحياء يُتهم بالرجعية، والإخلاص يُسخر منه، والعدل يُساوم، والرحمة تُستهزأ بها.

وفي مثل هذا العصر، لا خيار لنا إلا أن نرجع إلى سورة العصر، لا كموعظة تُتلى، بل كخارطة نجاة. تقول لك السورة بوضوح: من لم يتحصّن بالإيمان، ويعمل صالحًا، ويتواصَ بالحق، ويصبر على كل هذا، فإن العصر – بضغطه المهول – سيبتلعه، وسيذوبه، وسيتركه بلا أثر، بلا جوهر، بلا وجهة.

القيامة: لحظة الاستخلاص الكبرى

وحين يُرفع الستار، وتأتي القيامة، لن تكون سوى لحظة إعلان الحصاد. كل ما عُصر في الدنيا سيُستخرج هناك. كل نية، كل عمل، كل اختيار، كل لحظة ضعف أو قوة، تُستعرض كما يُستخرج العصير من الثمرة. القيامة ليست غريبة عن الدنيا، بل هي ختام لعملية العصر التي بدأت هنا.

لهذا، يقول الله: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾، لا على سبيل الاحتمال، بل على سبيل الحقيقة. فالأصل أن يُعصر ويخسر، إلّا من وعى هذا العصر، وتجهّز له، وبنى لنفسه درعًا من إيمان، وسلاحًا من عمل، وسندًا من تواصٍ، وزادًا من صبر.

التربية المقاومة للعصر

إذا فهمنا «**العصر**» على حقيقته، تغيّرت طريقة تربيتنا بالكامل. لا نُربّي على الرفاه، بل على الصبر. لا على التكيّف مع التيار، بل على الثبات في وجهه. نُعلّم أبناءنا أن الحياة ستعصرهم، وأنهم

لن ينجوا بالمصادفة، بل بالإيمان العميق، والعمل المخلص، والارتباط بجماعة تذكّرهم بالحق، وتشجعهم على الصبر.

هذه ليست وصفة مثالية، بل خطة نجاة. ومن لم يُربَّ على الصبر تحت الضغط، سيتكسر عند أول لحظة ضغط.

ختامًا: أنت في العصر... الآن

«**العصر**» في سورة العصر ليس وقتًا، بل موقفًا، امتحانًا، غربالًا. وهو لا ينتظر أحدًا. أنت الآن تُعصر:

- في صبرك على مرضٍ أو همّ.
- في تمسكك بالقيم وسط سيل الانحلال.
- في قدرتك على الصبر حين لا أحد يصبر.
- في اختيارك الخير، رغم أن الشر أسهل.
- في صبرك على إصلاح المجتمع الذي لا تنفك عنه.

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾...

فانتبه، قبل أن يعصرك الزمن، فلا يترك منك إلا الذكرى... أو الندم حينما لا ينفع مال ولا بنون، حينما لا ينفعك انعزالك ولا أوهامك ولا من ضللك بعلم أو بغير علم. قرارك هو خيارك لا خيار الآخرين عنك.

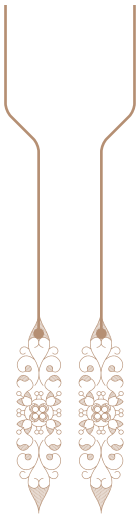

المعنى الثالث: «العصر» هو عصر انبثاق الرسالة المحمدية

حين نقف خاشعين أمام قوله تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ**﴾، فإن أول ما ينبغي أن ننزع عنا هو ثوب التسرع، وأول ما يجب أن نرتديه هو عباءة التأمل الطويل. ذلك لأن القرآن، وإن بدا ظاهرُه قريبًا، فإن عمق معانيه لا يُبلغ إلا بالغوص في بحار المعنى، ولا يُلامس إلا بجناح الخشوع، ولا يُفهم إلا حين نسمح للنور أن يمرّ خلال شقوق أرواحنا، فيضيء ما غيّبته العادة، وأخفاه السطح.

في هذا السياق، حين يُقسم الحقّ جلّ في علاه بـ«**العصر**»، فإن من بين أوجه هذا القسم أنه يُقسم بعصرٍ ليس كالعصور، بل عصرٍ غيّر مجرى التاريخ، وبدّل خارطة المصير، وأعاد البشرية إلى نقطة البدء لتُمنَح فرصةً أخيرة، فاصلة، نهائية. إنه العصر الذي أشرقت فيه شمس الرسالة المحمدية، وامتدّ فيه شعاع النبوة الخاتمة، وانفتحت فيه أبواب السماء لتُلقي إلى الأرض بأثمن ما في خزائنها: الوحي، والكلمة، والنبأ العظيم.

لقد كان ذلك العصر لحظة انعطاف كونية، لا لأنها فقط شهدت

ولادة نبيٍّ من البشر، بل لأنها أعلنت، على رؤوس الأشهاد، أن الله قد اختار أن يخاطب الخلق للمرة الأخيرة، وأنه قال كلمته الفاصلة، فأتمّ بها الدين، وأكمل بها النعمة، وختم بها دورة الوحي، التي بدأت بآدم وانتهت بمحمد، صلوات الله وسلامه عليه وآله.

إن «**العصر**» هنا، هو الزمان الذي بُعث فيه محمد المصطفى صلوات الله عليه وعلى آله الأطهر، وفي بعثته انبعثت كل القيم النائمة، واستيقظت كل الأرواح العطشى، وانقلبت معادلات الأرض، إذ أصبحت الكلمة ميزانًا، والإيمان سلاحًا، والوحي مصدرًا للشرعية، والحق هو الغاية التي لا بد من السعي إليها، مهما طال الطريق، واشتد العناء.

فحين يُقسم الله بـ«**العصر**»، فكأنما يقول: أقسم لكم بالزمن الذي حمل النبوة الخاتمة، وبالعصر الذي تفجّر فيه النور من غارٍ صغير، في جبل النور، لتُضاء به عصور كاملة، وأمم متعاقبة، وقلوب لا تحصى.

إنه العصر الذي ابتدأ بصوت: ﴿**اقْرَأْ**﴾، صوتٍ لا زال يتردّد في صميم كل إنسان يتلمّس سبيل الهداية، صوتٍ اخترق الصمت الثقيل الذي خيّم على البشرية قرونًا، ليوقظ الضمائر، ويزرع أول بذور الصحوة في صحراء الجهل، والشرك، والتسلّط، والتمييز، والقهر. هو عصرٌ لم يكن لحظةً في التاريخ فحسب، بل كان منعطفًا للوجود كله.

في ذلك العصر، لم تُنزل فقط كلماتٌ من السماء، بل نزل الميزان، ونزلت الرحمة، ونزل المنهج، ونزل مع كل حرفٍ من القرآن وعدٌ وعهد: أن من سار على هذا النور، نجا. ومن أعرض عنه، خسر، ولو ملك الأرض وما فيها.

وفي مقابل هذا الانبثاق النبوي، كان هناك تحدٍّ حقيقي: فالعصر الذي بزغ فيه النور، هو نفسه العصر الذي تصاعدت فيه حدة المواجهة بين الحق والباطل، بين التوحيد والوثنية، بين الرحمة والعنف، بين الصدق والنفاق.

فلم يكن عصر الرسالة زمنًا مريحًا، بل كان عصرًا مملوءًا بالامتحانات، بالعذاب، بالهجرة، بالصبر، بالشهادة، بالعزلة، بالخذلان من القريب، وبالطعن من الخلف، لكنه مع ذلك كان العصر الذي ظهر فيه معدن النبوة في أبهى صوره، وبرزت فيه إنسانية محمد النبي صلوات الله وسلامه عليه وعلى اله الطاهرين في أرقى تجلّياتها، واستبانت فيه طريق النجاة لكل من أراد النجاة.

إنه العصر الذي لم يكتفِ بكلمة الحق، بل استدعى أن تُروى بالدم، من بدر إلى أُحد، ومن الخندق إلى الطائف، حتى ختمها الحسين عليه السلام بدمه في كربلاء، كأنه يضع النقطة الأخيرة على السطر الأخير من البيان المحمدي، ليُعلن أن هذه الرسالة لا تموت، بل تُسقى بالدماء، وتُصان بالتضحيات.

ومن هنا نفهم أن القسم بـ«**العصر**» في سورة العصر، ليس

مجرد إشارة إلى الزمن الذي عايش فيه الناس النبوة، بل هو قسمٌ بالمرحلة التي أُقيمت فيها الحجة على الخلق، بشكلٍ لا رجعة فيه، ولا التباس. فمنذ أن بعث الله نبيّه، وأُنزل كتابه، وأكمل دينه، لم يبقَ لأحدٍ بعد ذلك عذرٌ في الغفلة، ولا مبرّر في الانحراف، ولا حجة في الجهل.

بل إن من وُلد بعد عصر النبوة، فإن آثار ذلك العصر لا تزال تطاله، لأن نور النبوة لا يقتصر على من عاين النبي ببصره، بل يمتدّ إلى كل من فتح قلبه على بصيرة، واستمع إلى صوت الرسالة وهو يخترق الزمان.

فأنت الآن، وأنا، وكل من جاء من بعد، نحن أبناء هذا «**العصر**»، شاء الناس أم أبوا.

وكل من دخل في الإسلام، فقد دخل ضمن دائرة هذا القسم الإلهي: ﴿**وَالْعَصْرِ**﴾، لأنه دخل في زمنٍ خُتمت فيه الحجة، وثُبّتت فيه الموازين، وأُعطي الناس كتابًا لا يموت، وقائدًا لا يُنسى، وأهل بيتٍ هم الامتداد الشرعي للنور، حُفّاظ الكتاب، ومصابيح الهداية.

وعليه، فإن الخسران الذي تحدّثت عنه السورة ليس خسرانًا فرديًا فقط، بل هو خسران أمة.

خسرانها إن هي نسيت العهد، وتخلّت عن الرسالة، وأهملت الكتاب، وفرّطت في الصلاة، وتنكّرت لورثة النبي، وراحت تلهث خلف سراب الدنيا، وترفع شعارات الدين بلا روحٍ، وتُقيم

احتفالات المولد النبوي وتغتال وصاياه في اليوم نفسه.

وهو أيضًا خسران الفرد الذي يعيش في وهج الرسالة، ثم لا يرى النور، ويسمع الأذان، ثم لا يصلي، ويقرأ القرآن، ثم لا يعمل به، ويعرف الحق، ثم لا يتبعه.

فحين يُقسم الله بـ«**العصر**»، فهو يُقسم على أن هذا الزمان، الذي بلغ فيه الحقّ منتهاه، لم يعد يقبل بالحياد، ولا يقبل بالتسويف، ولا يقبل بالإيمان المزيّف.

هو زمان الحسم.

ومن أراد النجاة، فعليه أن يكون من «**الذين آمنوا**» إيمانًا صادقًا، يُولد من صدق النية، ويتغذّى على المعرفة، ويُثمر في السلوك.

ومن «**عملوا الصالحات**» لا رياءً ولا عادة، بل خضوعًا وتعبّدًا.

ومن «**تواصوا بالحق**» لا على سبيل التنظير، بل على سبيل المعايشة، والنصح، والموقف، والبيان في وجه الباطل.

ومن «**تواصوا بالصبر**»، لأن هذا الطريق ليس سهلًا، بل هو طريق الغرباء، طريق الحسين عليه السلام وأصحابه رضوان الله عليهم، طريق الصابرين في الفتن، الممسكين بالجمر، المتشبثين بسفينة محمد وآله صلوات الله وسلامه عليهم، مهما هاجت العواصف.

فذاك هو طريق النجاة من خسران «**العصر**».

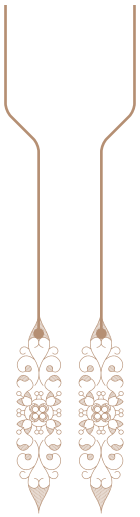

المعنى الرابع: «العصر» بمعنى الزمان المطلق

حين يُقسم الله جلّ وعلا بـ﴿**وَالْعَصْرِ**﴾، فإن هذا القسم لا ينصرف إلى لحظةٍ عابرة أو مشهدٍ تاريخيٍّ بعينه، ولا يُراد به فصلٌ محدّد من فصول الدهر، بل ينفتح على «**الزمان المطلق**» بكل أبعاده وامتداداته؛ الزمان الذي يسري في الوجود كما تسري الروح في الجسد، لا يُرى بالعين، لكنه يُحسّ في كل حركةٍ وسكون، يُلازمنا كما يلازم الظل صاحبه، بل هو أقرب إلينا من عروقنا النابضة، لأننا لا نعيش خارج الزمان، بل نُولد فيه، ونمضي في مجراه حتى نغيب في نهايته. هو الخلفية الدائمة لكل تفاصيل الحياة: المعارك، والسجود، والضحك، والبكاء، والصمت، والخطيئة، والتوبة. في هذا السياق، يصبح «**العصر**» ليس مجرد إطارٍ للأحداث، بل هو النَفَس الوجودي الذي به تُقاس الكرامة أو تُسجَّل الخسارة.

فالزمان – بهذا المعنى – ليس شيئًا خارجيًا عن الذات، بل هو جزء من كينونتها، وهو الوعاء الذي تُسكب فيه أعمالنا ومواقفنا وخياراتنا، فإن امتلأ بنور الطاعة، صار شاهداً لنا، وإن امتلأ بالغفلة

واللهو، صار علينا حجة لا تُدفع. لذلك، لا يُقاس الإنسان بطول عمره، بل بما فعل في هذا العمر؛ فقد يعيش أحدهم سبعين سنة فيغمرها باللغو والتسويف، فلا تزن عند الله شيئًا، بينما آخر يحيا عشرين سنة مشبعةً باليقظة والتقوى والجهاد، فتكون كفة حسناته أثقل من الجبال.

إن الزمان، بهذا المنظور، نعمة مهيبة، وميدان رهيب في آنٍ معًا: نعمة لأنه يُتيح لك أن تبني نفسك وترتقي، ورهيب لأنه لا ينتظر أحدًا، ولا يعود إلى الوراء، ولا يمحو ما سُجّل فيه إلا التوبة النصوح. لحظة واحدة يمكن أن تكون نقطة تحوّل أو بداية هلاك، وساعة واحدة قد تقرّبك من الله أكثر مما فعلت سنين، أو تُسجّل عليك خطيئة تبقى آثارها إلى ما بعد الموت. لذا كان أهل البيت عليهم السلام من أحرص الناس على زرع وعي الزمان في قلوب أوليائهم، لأن من وعى الزمان، وعى نفسه، ومن أدرك سيلانه، أدرك ضرورة الإمساك به قبل أن ينفلت من بين يديه.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في مناجاته الخالدة: «**اللهم اجعل أوقاتي من أفضل الأوقات، واجعل ساعاتي معمورة بذكرك، وأيامي بمرضاتك موصولة.**» فهو لا يطلب البركة في الزمن بوصفه رقمًا أو عددًا، بل كوعاءٍ للعبادة، ومزرعةٍ للأبدية، ومحطةٍ للترقّي في مدارج القرب.

وهنا تتجلّى خطورة الزمان: أنه لا يُعوَّض. المال إن ضاع رُبّما يُكتسب، والمكانة إن زالت قد تُستعاد، لكن الساعة التي مرّت في

الغفلة لا سبيل لاسترجاعها، فهي – كالماء المسكوب – لا يعود إلى الكأس. ومن هنا جاءت الكلمات المأثورة عن المنتبهين والعارفين: «**الزمن كالسيف، إن لم تقطعه قطعك**»، و«**الزمان ليس ذهبًا، بل هو أنت.**» فكل ما تفقده من الزمان، إنما تفقده من ذاتك. وكل لحظة لا تُستثمر في رضوان الله، إنما هي خيانة لروحك، وإهدار لعُمرك.

ثم إن الزمان، في ضوء النصوص القرآنية، ليس مجرد سياق جامد، بل كيانٌ حيّ يشهد، ويتكلم، ويُسجّل. تأمل قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا**﴾، إنه مشهد مهيب: الأرض، والزمان، والمكان، يتحولون إلى شهود ناطقين، يقرؤون سجلّ حياتك أمام العالمين. اللحظات التي حسبتَها عابرة، والكلمات التي ظننتَها سقطت من الذاكرة، والأنفاس التي زفرتها دون وعي، كلّها محفوظة في دفاتر الزمان، وستُنطق يومًا ما.

في هذا المنظار، لا يعود الزمان محايدًا على الإطلاق، بل يصبح إمّا في صفّك، وإمّا خصمًا لك. هو إمّا سلمٌ تصعد عليه، أو حفرة تسقط فيها. لا ينتظر، ولا يتكرّر، لكنه كل يوم يمنحك فرصة جديدة لتعيد ترتيبك الداخلي، وتفتح صفحة طاهرة، وتبني قرارًا يُرضي الله. الإنسان في الزمان إما أن يكون فاعلًا يقوده بوعيٍ نحو الله، أو مفعولًا به يسوقه الزمن كما تُساق الورقة في مهبّ الريح.

ولهذا جاء القسم الإلهي بهذا «**العصر**»، ليوقظ في الإنسان هذا الوعي الخطير: إنك لا تملك إلا الزمان، ولا تحيا إلا به،

ولا تُحاسَب إلا على ما فعلت فيه. فهو الرحم الذي تتكوّن فيه حقيقتك، والمحراب الذي تتجلّى فيه عبادتك، والمرآة التي تعكس جوهرك. وإن لم تُحسن التعامل معه، ضيّعت أثمن ما تملك، وكنت من الخاسرين.

ولذلك، جاء بعد القسم مباشرةً قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾، وكأن الخسارة ليست احتمالًا، بل حالة قائمة بالفعل، مالم يُستثنَ صاحبها بالإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. فالقرآن لا يقول فقط إن الوقت ثمين، بل يُعلن ما هو أبلغ: إن الوقت هو أنت، وإن مصيرك كله يُصاغ من لحظاتك، وإن كل لحظة تُهملها، إنما تُهدر جزءًا منك. إنها اللحظات التي يُصنع منها الخلود، وتُحدّد بها المرتبة، ويُكشف فيها الصدق، ويُوزن بها المصير. فمن لم يُدرك خطر الزمان، خسر أعظم معاركه، حتى لو انتصر في كل معارك الدنيا.

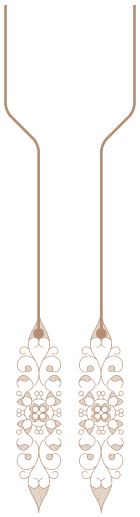

المعنى الخامس: «العصر» هو عصر ظهور القائم من آل محمد(روحي فداه)

حين يُقال إنّ المقصود بـ﴿**والعصر**﴾ هو عصر القائم من آل محمد عليه السلام، فإنّنا لا نكون بذلك نُحمّل السورة ما لا تحتمل، بل نغوص في أعماقها حتى نلامس الجذر النوراني الذي تتفرّع عنه كلّ دلالاتها. إنّ سورة تبدأ بقسمٍ إلهي، لا يمكن أن يكون موضوع هذا القسم شيئًا عرضيًا أو زمنًا عادِيًّا من أزمنة التاريخ، بل لا بد أن يكون قسمًا معقودًا على زمانٍ يحمل في ذاته مفصلية كونية، وزلزالًا تاريخيًا من نوع لا يتكرّر، زمنًا تنقلب فيه الموازين، وتُرفع فيه الرايات، وتظهر فيه الحقيقة التي انتظرتها الأرض منذ أن وطئها الإنسان. فما هو هذا الزمان العظيم، الذي يستحق أن يُقسم به ربُّ العالمين؟.

إنّه العصر الذي تتحقّق فيه العدالة الموعودة، ويُستعلن فيه الوعد الإلهي، ويخرج فيه الإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف)، ذلك الوليّ الغائب عن الأبصار، الحاضر في قلوب الأولياء، العادل الذي يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما مُلئت جورًا

وظلمًا. ذلك العصر ليس مجرّد منعطف تاريخي، بل هو الذروة التي تتّجه إليها حركة التاريخ الإلهي منذ أول الخلق. هو نقطة اللقاء بين السماء والأرض، بين الغيب والشهود، بين الدعاء الممتدّ من صدور الأنبياء، والدماء المتفجّرة من جسد الحسين صلوات الله وسلامه عليه، والانتظار الذي تحمله أرواح المؤمنين عبر العصور.

في هذا السياق، لا تعود كلمة «**العصر**» مجرّد ظرف زمان، بل تصبح «**هوية زمان**»، وتتحوّل من مصطلح زمني إلى شفرة رمزية لمشروع إلهي عظيم. العصر هنا هو الترجمة الزمانية لمشروع الخلافة الإلهية على الأرض، المشروع الذي بدأ منذ أن قال الله لآدم: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾، واستمرّ عبر سلسلة الأنبياء والأوصياء، حتى ختمه الله بخاتمهم محمد (صلى الله عليه وآله)، ليبلغ غايته في زمن القائم عليه السلام. فالعصر، بهذا المعنى، هو تجلّي تمام الحُجّة، وظهور الغاية الكبرى، وبروز الدولة الإلهية التي تنهي ظلمات التاريخ وتشرع عهد النور.

ومن هنا، نفهم أن القسم الإلهي بـ﴿**والعصر**﴾ ليس تعظيمًا للزمن في ذاته، بل تحية لموعودٍ تتشوّق إليه السموات والأرض، وتنظر إليه الأرواح من وراء الحجب. ولذلك فإن سورة العصر، بهذه القراءة، ليست سورة زمنٍ ماضٍ أو حاضرٍ عابر، بل سورة «**الزمن المنتظَر**»، سورة المستقبل المقدّس، سورة الفجر الآتي، الذي إذا انبثق تبدّدت الغيوم، وظهر وجه الحقيقة ناصعًا، وارتفعت

الغشاوة عن العيون، وسجدت الأرضُ لله طوعًا.

وليس هذا تأويلًا متعسّفًا، بل له جذورٌ في كلام أهل العصمة، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام تفسير ﴿**والعصر**﴾ بالإمام، لا بمعنى أنه الزمن فحسب، بل لأنه محور الزمن، وروحه، وعينه البصيرة. الإمام هو من به يُقاس الزمان، وبه يُعرف الحق من الباطل، وبه يُحدّد اتجاه التاريخ. هو عين العصر وروحه، لأنه حُجّة الله على الأرض، وبه يُعرف وجه الزمان من ظهره. فكما لا يُعرف الطريق في الظلمة إلا بنور، كذلك لا يُعرف وجه العصر إلا بالإمام الذي يسير أمامه.

وفي زيارة آل ياسين، نخاطب الإمام المهدي عليه السلام بقولنا: «**السلام عليك يا بقية الله في أرضه**»، وهذه الكلمة وحدها كافية لتبيّن لنا أن القائم ليس مجرد شخصٍ يأتي، بل هو «**بقيّة**» مشروعٍ إلهي، وخلاصة حركة الأنبياء، وعصارة التاريخ الرباني. هو بقاءُ الله في الأرض، وبظهوره يُختم المسير، ويُعلن النصر، وتتحوّل الأرض إلى مشهدٍ من مشاهد الآخرة. ولذلك، فإنّ «**العصر**» الذي يُقسم به الله، يمكن أن يُفهم باعتباره هذا الزمن الذي تتجلّى فيه بقية الله، ويُعلن فيه الله عن كلمته الأخيرة للعالم.

وحين تُقسم السورة بهذا العصر، ثم تعقّب مباشرةً بقولها: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾، فإنّها تُعلن أنّ الخسران الأكبر لا يكمن في فوات الأموال أو فقدان العمر أو ضياع الحظوظ الدنيوية، بل في الفشل في الالتحاق بمشروع هذا العصر، في الغفلة عن زمن القائم،

في العمى عن راية الحق حين تُرفع، وفي السكون حين يستدعي الحقُّ حركة. فالخاسر الحقيقي هو من عاش خارج سياق العصر، أو عاش فيه دون أن ينتمي إليه. ولهذا قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «**من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية**»، لأنّ الجاهلية ليست ظرفًا تاريخيًا فحسب، بل هي حالة الغفلة عن الإمام عليه السلام، وحالة الانفصال عن عصره، وعدم الانتماء إلى وجهة التاريخ.

إنّ الإنسان الذي لا يحمل في قلبه شوق الانتظار، ولا يخطو في حياته خطوة في سبيل التمهيد، هو إنسان هائم في التيه، حتى لو بدا ناجحًا في الظاهر. لأنّ العصر الحقيقي ليس ما يُحدّده التقويم، بل ما تُحدّده الوجهة. ومن لم تكن وجهته القائم، فهو خارج العصر، وإن كان في قلب زمانه.

وهنا نصل إلى المفصل الروحي العميق: الانتظار. فالانتظار ليس حالًا سلبيًا، ولا جلوسًا على قارعة التاريخ، بل هو حالة تعبئة دائمة، وبناء متواصل، واستعداد حقيقي، وتطهير داخلي، وتمهيد عملي. الانتظار هو أن تعيش بعقلية الظهور، وتسلك سلوك الممهدين، وتربي نفسك وأهلك ومجتمعك على أن يكونوا أهلًا للقاء. ولهذا كانت السورة شديدة الدقة في التعبير: الإيمان وحده لا يكفي، بل يليه العمل الصالح، والتواصي بالحق، ثم الصبر، لأنّ الطريق نحو الظهور ليس مفروشًا بالورود، بل محفوف بالمحن، ملغّم بالابتلاءات، طويل الغيبة، عظيم الفتن. ولا يصبر عليه إلا

مَن تربّى في مدرسة الانتظار الواعي.

وهكذا، تصبح سورة العصر خارطة طريق للمؤمنين في زمن الغيبة: من لم يحمل في قلبه إيمانًا بالقائم، ومن لم يسعَ في دنياه لتمهيد الأرض له، ومن لم يُجاهد في قول الحق والثبات عليه، ومن لم يُصابر على البلاء والغربة والشكوك، فهو في خسرٍ لا يُنقذه منه مالٌ ولا منصبٌ ولا شهادة. وحدهم الذين تشكّلت هويتهم من الإيمان بالقائم، وعجنوا أعمارهم بالعمل الصالح في سبيله، وتواصوا بالحق الذي سيظهر على يديه، وصبروا على غيبته وهم ينتظرون فجره، أولئك هم المستثنون من الخسران.

بهذا الفهم العميق، نُدرك أن سورة العصر ليست سورة الزمان فحسب، بل سورة «**الزمان الموعود**»، وسورة «**الإنسان المنتظر**»، وسورة «**الخسران الكوني**»، وسورة «**الخلاص المشروط**». هي بيان إلهي مختصر، عميق، صارم، يُنذر ويُبشّر، يُفصل ويُختصر، يُعلّمنا أنّ التاريخ ليس عشوائيًا، وأن الخلاص له بوّابة واحدة، وهي عصر القائم، وأن النجاة لا تُمنح اعتباطًا، بل تُنتزع بالصدق، والعمل، والولاء، والصبر.

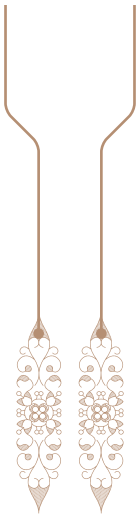

خلاصة وترجيح في ضوء المعاني الخمسة:

حين يطيل المتأمل النظر في سورة العصر، فإنه لا يقف أمام نصٍ قصير الألفاظ فحسب، بل أمام قسم إلهي مشحون بالدلالات، يُفرد «**العصر**» من بين سائر الأزمنة ليكون مفتاحًا لفهم المصير الإنساني، وعتبةً تعبر منها البشرية من ضياعها إلى نجاتها. والسؤال الجوهري الذي يُطلّ من قلب هذا القسم: ما هو العصر الذي يستحق أن يُقسم الله به، وتُبنى عليه خريطة الخسران والنجاة؟ إن هذا السؤال كان موضع نظر واجتهاد عند المفسّرين والعرفاء والباحثين، وتعدّدت حوله الآراء والمعاني، حتى كادت كلّ زاوية زمنية تُطلّ منه بدلالة خاصة.

لقد طُرحت تفسيرات عديدة لكلمة «**العصر**»، كل واحد منها يعكس جانبًا من العمق القرآني، ويُبرز بُعدًا من الأبعاد الرسالية التي تتسع لها هذه السورة الجامعة. فالمعنى الأول قد نظر إلى «**العصر**» كنايةً عن الزمن المطلق، الدهر الشامل، الذي يدور فيه التاريخ وتتقلب فيه المصائر. وفي هذا المعنى، يبدو القسم وكأنه

إحالة على سنن الله في الكون، التي لا تحابي أحدًا، فكل من ضلّ عن طريق الإيمان والعمل والتواصي، كان في خسر. وهذا الفهم، برغم عموميته، يضعنا أمام نظرة شاملة، لكنه لا يحدّد موقع الإنسان من خريطة الخلاص تحديدًا دقيقًا.

ثم يأتي المعنى الثاني، الذي ينحني بخشوع نحو عصر النبوة الخاتمة، عصر محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وآله)، فيرى أن الله أقسم بزمان الرسالة الكبرى، التي ختمت بها النبوات، واكتمل بها الدين. وهذا التفسير يربط القسم بسياقٍ تاريخي عظيم، لكنه يظل محصورًا في الزمن الذي انقضى، دون أن يُطلّ بنا على العصر القادم، الذي وُعدت به البشرية منذ القدم.

وفي المعنى الثالث، نجد توجّهًا وجدانيًا أكثر، يربط «**العصر**» بوقت صلاة العصر، في إشارة إلى ما لهذا الوقت من قداسة خاصة، وارتباطه بالتحوّل الروحي في يوم الإنسان. إن هذا التأويل، برغم بساطته، يُذكرنا بأن الدين ليس فقط رسائل كبرى، بل أيضًا محطات يومية تحفظ القلب من الضياع في دوّامة الانشغال. فالعصر، بوصفه وقتًا للصلاة، هو محطة استدراك في منتصف اليوم، فرصة توازن بين الكدح والبقاء في الصراط.

أما المعنى الرابع، فيميل إلى البعد الرمزي، حيث يُفهم «**العصر**» على أنه الزمن المتأخّر من عمر البشرية، عصر الانحدار والتدهور، حيث تتكثّف مظاهر الفساد، وتعلو رايات الجاهلية الحديثة، وتشتدّ وطأة الابتلاءات على الأمم. وهذا التفسير يحمّل

السورة طابعًا إنذاريًا، كأنها تصرخ في وجه الإنسانية الغارقة، وتقول لها: إنك في خسر، ما لم تنتبهي قبل أن يفوت الأوان. إنه معنى يتّسم بالدرامية، لكنه لا يقدّم مشهد الخلاص إلا تلميحًا، ويترك السامع في العتمة دون مصباح.

ثم نصل إلى المعنى الخامس، الذي تتوسّع فيه الدائرة فجأة، ويتحوّل القسم من خطاب تأريخي إلى إعلان غيبي. هنا، يُفهم «**العصر**» باعتباره الزمن الموعود، العصر الذي يظهر فيه القائم من آل محمد عليهم السلام، فيُحيل النصّ من التأمل في الماضي إلى الترقّب الواعي للمستقبل، ومن الحذر من الخسارة إلى الوعد بالقيادة، ومن الخوف إلى اليقين. هذا المعنى لا ينفي سائر المعاني، بل يضمّها كلها تحت جناحيه، كما يضمّ القائدُ الراية التي طال انتظارها. فهو العصر الذي تُختم به دورة الخلافة، وتُكشَف فيه الحُجّة، ويظهر فيه العدل في أجلى صوره، ويعود فيه الدين غضًا كما بدأ.

ومن هذه الزاوية، يمكننا أن نعيد قراءة بنية السورة بأكملها. فالقسم الإلهي بـ«**العصر**» لم يكن تعظيمًا للزمن لمجرد الزمن، بل لزمنٍ بعينه، زمن تتقاطع فيه وعود السماء مع آلام الأرض. ثم يأتي التصريح: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾، كتشخيص لحال البشرية قبل هذا الظهور، يليها استثناء يحمل شروط النجاة: إيمان، عمل صالح، تواصٍ بالحق، وتواصٍ بالصبر. وهذه الشروط الأربع ليست إلا ملامح المجتمع الممهد للإمام عجل الله فرجه الشريف،

فالإيمان هنا ليس مجرد عقيدة، بل معرفة بالقائم؛ والعمل الصالح ليس مجرد إحسان، بل تمهيد وتهيئة؛ والتواصي بالحق هو رفع راية المشروع الإلهي؛ والصبر هو الحضور الواعي في زمن الغيبة الطويلة.

إن هذا المعنى ليس شطحًا تأويليًا، بل مدعومٌ بروايات واضحة من مدرسة أهل البيت عليهم السلام، كالرواية المروية عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسيره للآية: «**العصر**: **هو عصر خروج القائم** عليه السلام». بهذا التفسير، تتكامل القراءات، ويُصبح المعنى الخامس هو القمّة التي تتصاعد إليها التفاسير الأخرى. فلا زمن يستحق القسم كزمن الظهور، ولا مشروع يُخرج الإنسان من الخسارة كالانخراط في جيش القائم ارواحنا فداه.

وليس الهدف من ترجيح هذا المعنى نفي غيره، بل إضفاء بُعد تكاملي، حيث يُفهم أن سائر المعاني كانت بمثابة مقدمات وإرهاصات، تمهّد لمعنى جامع، يشملها ويضيئها من الداخل. فإن كان «**العصر**» هو الزمن، فأعظم زمن هو زمن المهدي عليه السلام. وإن كان عصر النبي المصطفى صلوات الله عليه وعلى اله، فهو الذي بشّر به. وإن كان وقت الصلاة، فالصلاة خضوعٌ لراية القائم. وإن كان عصر الانحطاط، فهو علامة على قرب الفجر.

وبهذا التأويل، لا تعود سورة العصر مجرد تحذير، بل تتحوّل إلى خارطة طريق للمنتظرين، إلى نداء تعبوي، وإلى وثيقة وعي

مهدويّ مكثّفة. تُصبح السورة إعلانًا إلهيًا، بأنّ الخلاص ليس أمنية، بل موقف؛ وليس انتظارًا سلبيًا، بل التزام؛ وليس فرديًا، بل مشروعٌ أممي يُدار من وراء الغيب، ويقوده الإمام الغائب، الذي هو حاضر في من يحمل مشروعه، ويمهّد له، ويصبر على غيبته، حتى يأذن الله بالظهور.

هكذا، تتّضح السورة في صورتها الكاملة: قسم بالعصر، أي بالزمن الذي يتحقّق فيه وعد الله، ثم تحذير من الخسران العام، ثم رسم لطريق النجاة، الذي يبدأ من معرفة الإمام عليه السلام، ويمرّ بالإيمان به، والعمل له، والدعوة إلى قضيته، والصبر حتى ينجلي الليل. إن سورة العصر، في ضوء هذا المعنى، ليست فقط نصًا قرآنيًا، بل خارطة وجود، وبرنامج نجاة، ومفتاح فَهم لعصرٍ لم يأتِ بعد، لكنه حاضرٌ في الوجدان، ومترقَّب في كل نبضٍ من نبضات الانتظار.

ثانيًا: أهمية كل معنى من معاني «العصر» بالنسبة للإنسان:

حين نتأمل كلمة «**العصر**» التي افتتحت بها سورة عظيمة في القرآن الكريم، ندرك أنها ليست مجرد لفظ عابر يصف الزمن، بل بوابة نحو فهم أعمق لحالة الإنسان في هذه الحياة، وعلاقته بالزمن وبما يحيط به من حقائق روحية ومجتمعية. لكل معنى من معاني «**العصر**» الخمسة، بعد إنساني روحي ووجودي يلامس حياة الإنسان في جوانبها المختلفة، ويُغني رؤيته في مواجهة التحديات الكبرى التي تعترضه. دعنا نتناول هذه الأهمية بحُسن تأمل وعمق سردي.

العصر بمعنى الزمان المطلق:

الإنسان لا يعيش في فراغ، بل في زمن يمتد من الماضي إلى المستقبل، والزمن هو الإطار الذي يتسع فيه وجوده وتجربته. إدراك الإنسان لأن «**العصر**» هو الزمان بحد ذاته، يفتح له نافذة الوعي بما لا ينفك عنه أبداً: انقضاء الوقت وسرعة انحساره. هنا

تكمن الأهمية الكبرى، فكل لحظة تمر لا تعود، والإنسان مدعو لأن يعيش مع الزمن بحكمة، يثمن كل ثانية ويغتنم كل فرصة، فالعمر محدود والفرص محدودة. إن إدراك الزمن كقيد وميدان للفعل يدفع الإنسان إلى جدية في الاختيار والعمل، وإلى مسؤولية عميقة تجاه ما يصنعه في حياته. بهذا الوعي، يصبح الإنسان حكيمًا لا يضيع عمره في التهاون أو التسويف، بل يسعى نحو بناء حياة ذات معنى وغاية واضحة.

العصر بمعنى وقت الضيق والاختبار:

حين نفهم العصر كوقت ضيق وضغوطات، ندرك أن الإنسان لا يُقيّم إلا في ساحات المحن والتحديات. أهمية هذا المعنى تكمن في أن الإنسان مدعو لأن يقف بثبات في وجه الصعاب، وأن يثبت على قيم الحق والعدل والصبر، رغم ما يحيط به من أزمات. الحياة ليست سهلاً دائمًا، بل هي ميدان اختبار دائم، والتاريخ يعج بأمثلة من الإنسان الذي انتصر على ضيقه بالثبات على المبادئ. إدراك هذه الحقيقة يجعل الإنسان لا يركن إلى الراحة الزائفة أو الاستسلام لليأس، بل يحفزه على الصمود، وعلى تكوين شخصية قوية قادرة على مواجهة المحن، ويدرك أن العسر جزء من مسيرته التي تصقله وتجعله أكثر نضجًا وحكمة.

العصر بمعنى النضج وتمام القوام:

هنا يتجلى معنى آخر للعصر يرتبط بنضج الإنسان وتكامل تجربته، حيث العصر هو تلك المرحلة التي يكتمل فيها الإنسان، ويبلغ ذروة إمكاناته الروحية والعقلية والجسدية. أهمية هذا المعنى تكمن في حث الإنسان على السعي نحو الكمال، نحو استثمار كل طاقاته وطاقات روحه في التطور والنمو. إن حياة الإنسان التي لا تشهد نضجًا وتطوراً هي حياة ناقصة، والعصر هو منبه قوي يحث على اكتساب الحكمة، واكتشاف الذات، وتحقيق التوازن بين العقل والقلب، وبين الدنيا والآخرة. من هذا المنطلق، يصبح الإنسان في كل لحظة من عمره مسؤولاً عن تنمية ذاته، ليصبح إنسانًا متكاملاً قادراً على حمل رسالة الحياة بأمانة وفاعلية.

العصر بمعنى فترة بعينها (عصر تاريخي أو حضاري):

عندما نفهم العصر على أنه فترة محددة في التاريخ، فإن أهمية هذا المعنى تتجلى في مسؤولية الإنسان تجاه واقعه ومحيطه. الإنسان هو نتاج زمانه، والزمان لا ينتظر، لكنه يترك أثراً من خلال أفعاله وأفكاره. أهمية هذا المعنى تكمن في أن الإنسان لا يمكنه أن يكون منفصلاً عن عصره، فهو يتفاعل معه، ويؤثر فيه، ويتأثر به. إن إدراك الإنسان لخصوصية عصره يجعله واعيًا لخصائص زمانه، وللظروف التي تحيط به، ويجعله أكثر قدرة على التفاعل البناء، وأشد حرصًا على أن يكون عامل خير لا خراب، وأن يترك

أثراً إيجابياً في زمنه. بهذا الوعي، يبرز دور الإنسان كفاعل مسؤول في تاريخ مجتمعه، لا مجرد متفرج.

العصر بمعنى عصر ظهور القائم من آل محمد عليه السلام:

هذا المعنى يحمل أبعاداً روحية وعقائدية عميقة، فهو يمثل زمن الخلاص والعدل الحقيقي، زمن الفرج المنتظر. أهمية هذا المعنى بالنسبة للإنسان تكمن في الأمل والإيمان بقدرة الله على إصلاح الكون، وبوعد الفرج والنصر على الظلم والفساد. هذا الأمل يبعث في نفس الإنسان القوة والعزيمة، ويمنحه الصبر والثبات في وجه الصعاب. إن انتظار ظهور الحق وإنارة الدنيا بنور العدل يزرع في الإنسان معنى الحياة الحقيقية، ويشعره بأن وجوده ليس عبثًا، بل هو جزء من قصة كونية أوسع تحمل خلاص البشرية. الإيمان بهذا العصر هو جسر يربط بين الحاضر المضطرب والمستقبل المشرق، ويحفز الإنسان ليكون جزءًا من هذا التيار الإصلاحي العظيم، مهما كانت الظروف قاسية.

خلاصة:

كل معنى من معاني «**العصر**» يحمل أبعادًا وأهمية كبيرة في حياة الإنسان، فهو يوجهه نحو إدراك قيمة الزمن، ويعلمه الصبر والثبات، ويحثه على النضج والتطور، ويجعله واعيًا لزمانه ومسؤولاً عنه، ويغرس فيه الأمل بالفرج والخلاص. بهذا الفهم

المتكامل، يصبح الإنسان أكثر حكمة في إدارة حياته، وأكثر قوة في مواجهة تحديات الزمن، وأكثر قدرة على أن يكون نورًا في ظلمة العصر، ورافعةً لنهضة إنسانية تستحقها البشرية. إن «**العصر**» إذن، ليس مجرد كلمة، بل رسالة عميقة لكل من يعي قيمتها ويعيشها.

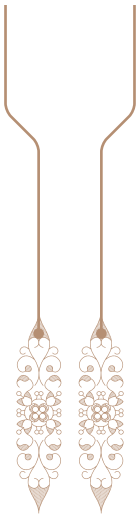

ثالثاً: مسؤولية الإنسان تجاه المعنى

حين نعيش في هذا العالم، لا يكفي أن نفهم الزمن أو العصر كمجرد فكرة أو كلمة ترد في كتاب أو حديث. إن المسؤولية الحقيقية تبدأ حين يدرك الإنسان أن لكل معنى من معاني «**العصر**» نداءً خاصًا إليه، ومهمة خاصة لا بد له من حملها بشجاعة ووعي. فالإنسان هو الفاعل الحقيقي في دائرة الزمن، وهو المخلوق الذي عليه أن يتحمل أعباء هذه المسؤولية بكل صدق وإخلاص، لا أن يكون مستهلكًا سلبيًا للزمن، أو ضحية للظروف المحيطة به. فكل معنى من معاني «**العصر**» يضع أمام الإنسان مسؤوليات متجددة ومتنوعة، تحتاج إلى فعل وإرادة وعطاء.

مسؤولية الإنسان تجاه الزمن المطلق:

الزمن هو النهر الذي لا يتوقف عن الجريان، والإنسان الذي يفهم هذا النهر كقيد وكمورد ثمين، يتحمل مسؤولية الحفاظ على كل لحظة فيه، بأن يحسن استثمارها، ولا يضيعها في ترف

أو تسويف. المسؤولية هنا تكمن في الإحساس بالزمن كنعمة تُعطى مرة واحدة، وبأن كل ثانية تمر هي فرصة ذهبية لإعادة البناء وتصحيح المسار. لهذا، يجب أن يتحلى الإنسان بالوعي التام لحقيقة الوقت، وأن ينمي ثقافة الالتزام بالعمل، وتنظيم حياته بما يضمن أن لا تمر عليه لحظة بلا أثر إيجابي. المسؤولية هنا هي مسؤولية تفعيل الذات، لا الركون إلى الكسل أو الإهمال.

مسؤولية الإنسان تجاه زمن الضيق والابتلاء:

عندما يدرك الإنسان أن العصر هو وقت اختبار وضيق، يتحتم عليه أن يزرع في نفسه ثباتًا لا ينكسر، ويقيم على القيم التي تحميه من التفتت والانهيار. المسؤولية هنا لا تقتصر على الصبر فحسب، بل تتعداه إلى التحلي بالشجاعة في مقاومة الفساد، والتمسك بالحق رغم الضغوط. الإنسان مسؤول عن أن يكون في الملمات منارة أمل، وحصنًا متينًا يقف ضد موجات اليأس والاستسلام. عليه أن يحول كل ضيق إلى فرصة للنمو الروحي والعقلي، وأن ينقل تجربته للأجيال القادمة كدرس في الصمود. هذه مسؤولية لا تتحقق إلا بمنهجية واعية وتضحيات متجددة.

مسؤولية الإنسان تجاه نضجه وتكامله:

حين يدرك الإنسان أن العصر هو لحظة نضج وإتمام، يتوجه نحو واجب تطوير ذاته بكل أبعادها، ليصبح نسخة أفضل من

نفسه في كل يوم. هذه مسؤولية عميقة تدفعه إلى المحاسبة الذاتية المستمرة، وإلى السعي الدؤوب لاكتساب المعرفة، وتعزيز الفضائل، وتنقية الروح من الشوائب. لا يمكن للإنسان أن يبرر تقاعسه أو تهاونه بحجج واهية، فكل لحظة تأخر فيها عن النضج الحقيقي تعني ضياع فرصة لبناء حياة أكثر اكتمالًا وعطاءً. المسؤولية هنا هي مسؤولية الرعاية الذاتية المتكاملة، التي تضمن للإنسان مكانة حقيقية في مسيرة الحياة، ويكون فيها قدوة حسنة في مجتمعه.

مسؤولية الإنسان تجاه عصره وتاريخه:

الفهم الواعي للعصر كتاريخ محدد، يضع على عاتق الإنسان مهمة أن يكون عامل تغيير، لا مجرد شاهِد سلبي على ما يجري. عليه أن يتحمل المسؤولية في بناء مجتمعه، وتطوير واقعه بما ينسجم مع القيم العليا، لا أن يكون معرّضًا للاستغلال أو الجمود. هذه المسؤولية هي مسؤولية المشاركة الفاعلة في مجالات الحياة المختلفة: الاجتماعية، السياسية، الثقافية، والروحية. الإنسان مسؤول عن أن يسهم في رفع مستوى الوعي الجمعي، وأن يعيد ترتيب الأولويات بما يخدم الخير العام، ويحمي من الانحراف والفساد. هذا يعني أن الإنسان لا يستطيع الهروب من مسؤولية تأثيره على الزمن الذي يعيش فيه، بل يجب أن يكون فاعلاً إيجابيًا.

مسؤولية الإنسان تجاه عصر الفرج والعدل المنتظر:

هذا المعنى يحمل أسمى مسؤوليات الإنسان على الإطلاق، حيث يرتبط بالإيمان العميق بأن هناك نهاية للظلم، وبداية لحق يسطع. مسؤولية الإنسان هنا هي مسؤولية الرجاء والعمل معًا، بالصبر على المحن، والتزود بالأخلاق الحميدة، والتسلح باليقين بأن العدل سيظهر. عليه أن يزرع في قلبه الإيمان بالفرج، ويحول هذا الإيمان إلى قوة تحركه نحو الإصلاح، وتجنب الظلم، والسعي لرفع الظلم الاجتماعي والروحي. هذه المسؤولية تجعل من الإنسان حاملًا لمشروع نهضة كونية، ليست شخصية أو عابرة، بل مشروع سلام وعدالة شامل، يستمد قوته من الأمل الراسخ في وعد الله.

بعد ما ذكرت القول: إن مسؤولية الإنسان تجاه كل معنى من معاني العصر هي واجب مستمر لا ينقطع، وهي ركيزة أساسية لحياة ذات معنى وغاية. الإنسان ليس مجرد كائن يمر بالزمن، بل هو صانع الزمن، ومبدل الواقع، ورافع راية الحق والصبر والنضج والتفاعل الاجتماعي. حين يعي الإنسان هذه المسؤولية، تتبدل نظرته إلى الحياة، ويصبح أكثر يقظة وحيوية، وأكثر قدرة على صناعة الفرق، ويعيش في انسجام مع الزمن، لا في صراع معه. وهكذا تتحول كلمة «**العصر**» من مجرد لفظ إلى عهد ومسؤولية، يترجمها الإنسان بأفعاله ومواقفه في كل لحظة من حياته.

الباب الثالث: معنى الخسران

- الخسران في الدنيا: ثمن الانفصال عن الوحي في مسرح الحياة
- الخسران في الدنيا: نظرة شاملة
- الخسران في الآخرة: المصير المهلك في ضوء سورة العصر

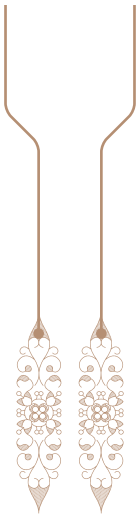

الخسرانان، والخطّ المستقيم بين الدنيا والآخرة

فـ«**الخسران**» هو مركز الثقل في سورة العصر، وهو المحور الذي يدور حوله التحذير الإلهي، والنجاة منه هي غاية رسالة الأنبياء والأئمة. ومن المهم جدًّا بيان أبعاد الخسران التي أشارت إليها السورة الكريمة، سواء في الدنيا أو الآخرة.

الخسران في الدنيا: ثمن الانفصال عن الوحي في مسرح الحياة

حين نقف بين يدي آيات سورة العصر، لا ينبغي أن نتلقّاها بعين التشاؤم، وكأنها دعوة للانكماش أو الحزن المجرّد. فالله عز وجل، حين يصوّر الإنسان في حالة خسران، لا يقصده بالتحقير، بل يريده أن ينتبه، أن يصحو، أن يستفيق من سُباته قبل فوات الأوان. إن التنبيه بالخسارة ليس رجعًا لصوت اليأس، بل نداء رحيم يحمل في طيّاته وعد النجاة. إنّه وصف صادق لحالة من التوهان الداخلي حين ينفصل المرء عن نبع الهداية، ويترك الخريطة التي أودعها الله في قلب هذا الوجود.

ليست الخسارة الدنيوية – كما يظن البعض – أن يُحرم الإنسان من المال أو أن تداهمه الأوجاع أو أن يُثقل كاهله ضيقُ العيش، فكل هذه المظاهر قد تعتري أهل الإيمان كما تعتري سواهم. لكن الخسارة التي تشير إليها سورة العصر أعمق بكثير، وأخطر بما لا يُقاس. إنها خسارة البوصلة. أن يمضي الإنسان عمره في سباق متواصل نحو نجاحاتٍ براقة من الخارج، لكنها خاوية من الداخل، أن يُنفق أيامه في تحصيل ما لا يُغني قلبه، ويبتعد شيئًا فشيئًا عن المعنى، وعن الله، وعن نفسه، تلك هي الخسارة التي لا تعوّضها كنوز الأرض، ولا تمحوها أضواء المجد العابر.

وقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾ ليس حكمًا معلّقًا بزمان أو محصورًا في فئة، بل هو تقرير مطلق، لا يُستثنى منه أحد إلا من وُفّق إلى التلبّس بأركان النجاة التي جاءت بعدها. هو حكم يحاصر الغفلة، ويطوّق التائهين من كل جهة. ومن هنا، فإن الخسران في الدنيا ليس فصلًا معزولًا عن خسران الآخرة، بل هو تمهيد لها، وامتداد أوليّ لها، وبوابة تُفضي إليها. من ضيّع نفسه في دنياه، كيف له أن يفوز بحياة أخرى لم يستعدّ لها، ولم يعرف لغة الحديث معها؟

وحين نفتح أعيننا على الواقع، نرى صورًا للخسران لا تُلتقط بالعين، لكنها تُنهك الروح بصمت. ترى من يملك كل أسباب النجاح، لكنه مفرَّغ من الطمأنينة. يُحاط بالأضواء، ويُحيَّا بالتصفيق، لكنه حين يختلي بنفسه، يشعر بالتيه، وكأن شيئًا جوهريًا

ينقصه. هذا هو الخسران الذي لا يُعلَن في الصحف، ولا يُكتَب في التقارير، لكنه يهمس في قلب الإنسان بأسئلة موجعة: «**أين أنا من ذاتي؟ وأين قلبي من خالقي؟**».

وسنمضي في هذا المسار، نستلهم من القرآن، ومن سيرة الأطهار عليهم السلام، ما يكشف لنا كيف يمكن لعمرٍ بأكمله أن ينقلب إلى فقاعة، ولنجاحٍ صاخب أن يكون غفلة، ولحياةٍ متخمة بالمظاهر أن تكون خالية من الروح، إن لم تكن مشدودة إلى نور الوحي، وممتزجة بماء الحقيقة

أولاً: خسران الهدف من الحياة وسقوط البوصلة الوجودية

يُلقى الإنسان في هذا الوجود محاطًا بأسرار لا تنقضي، لكنه لا يأتي إليه خالي الوفاض. إنّه يحمل في أعماقه نداءً فطريًا عتيقًا، صوتًا داخليًا لا يسكت، يسأله باستمرار: لماذا أنا هنا؟ وإلى أين تمضي هذه الرحلة التي بدأت بلا استئذان؟ هذا النداء ليس رفاهًا فكريًا، ولا ترفًا فلسفيًا، بل هو جوهر إنساني أصيل، يلازمه كما يلازمه ظلّه، لا يهنأ له بال، ولا يطمئن له قلب، ما لم يجد لتساؤله جوابًا، ولحيرته يقينًا، ولمسيرته وجهة تجعل الحياة ذات طعم، والوقت ذا معنى.

لكن ما إن يُهمل الإنسان هذا النداء، أو يدفنه تحت ركام الملهيات، حتى يبدأ أول شقوق الخسران بالظهور. ذلك الخسران لا يظهر في حسابات البنك، ولا في تقارير الصحة، بل

يضرب في أعماق الوجود، في ذلك العمق الذي لا تبلغه الأشعة ولا المقاييس، لكنه وحده من يحدد: هل هذا الإنسان حيٌّ حقًا، أم أنه يتحرك بجسد ميت، وروح تائهة؟

وهذا النوع من الخسارة لا يُرى في ملامح الوجه، ولا يُلمَس في الإنجازات، بل ينهش من الداخل بصمت، كالسوس الذي يأكل الخشب من باطنه بينما الخارج ما زال متماسكًا. يعيش الإنسان على وقع مهامٍ يومية تُنفذ دون أن يفهم لِمَ وُضعت أصلاً، ويجترّ الأيام كما يُجترّ الصوت في الفراغ، فيلهث في دروبٍ لا يعرف نهايتها، وتضيع أسئلته الكبرى وسط ضجيج التفاصيل الصغيرة التي لا تنتهي. تمسي الحياة سلسلة من التكرارات التي تُستنسخ كل صباح، لا تجديد فيها، ولا إلهام، ولا حضور داخلي يوقظ القلب من سُباته.

وحين تفقد الحياة معناها، تتحول إلى طقوس خالية من الروح، إلى مشاهد متكررة لا تختلف فيها البداية عن النهاية، ولا الغد عن الأمس. يسير الإنسان بلا رسالة، يتحرك بلا بوصلة، يشتغل بكل شيء إلا بما خُلق له. وقد أشار الله تعالى إلى هذا النوع من الغفلة الغارقة في الوهم، حيث لا تكمن المأساة في الضلال الظاهر، بل في اعتقاد الإنسان أنه على الحق بينما هو غارق في التيه: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾

إنها من أشد لحظات الغرور خطرًا: أن يبني الإنسان حياته

على وهم، ويكرّس طاقاته في دروب لا تفضي إلا إلى اللاشيء، أن يلهث خلف ما لا يُشبع، ويعبد ما لا ينفع. أن تتحول الأهداف إلى أصنام حديثة، تلمع لكنها لا تهدي، وأن يُقصى خط الهداية الإلهي من خارطة الوعي، ويُستبدل بخطوط مرسومة بشهوات النفس وميول اللحظة.

وما هو أخطر من ذلك، أن يُقصي الإنسان من ضميره حضور الإمام، إمام زمانه الذي وُكِلَت إليه الراية، ونيط به الأمل. يعيش في زمن الغيبة كأنه لا غيبة، ويمرّ به النداء ولا يصله. يغيب عنه وعي الانتظار، وحرقة الشوق، واستعداد الإصلاح، فيمسي قلبه منطفئًا عن القضية التي لولاها ما بقي للحق شاهد. فمن لا يحمل في قلبه نبض الإمام المهدي عجل الله فرجه، كيف له أن يفهم الغاية من الزمان؟ وكيف له أن يزن أفعاله بمعايير الحقيقة؟

الخسران هنا ليس لحظة مفردة، بل مسار طويل من الانحدار الوجودي، يبدأ بفقدان الاتجاه، وينتهي بفقدان الذات. يتحرك الجسد، لكن الروح في مكان آخر. تمضي السنوات، لكن القلب لم يعش منها شيئًا. يُفتقد الله في حسابات الحياة، ويُهمَل صوت الحق وسط صخب الانشغالات، ويظن الإنسان أنه يقترب، بينما هو في الحقيقة يسير في الاتجاه المعاكس.

هذه هي بداية الخسران الحقيقي. حين لا يعود للعيش معنى، ولا للجهد ثمرة، ولا للزمن قداسة. حين تُختزل الحياة في ظاهرها، ويُنسى باطنها، وتُستبدل رحلة العودة إلى الله برحلة

الدوران في دوائر لا تنتهي. وحين تصبح النهاية غير متصلة ببداية، حينها فقط، يدرك الإنسان ـ بعد فوات الأوان ـ أنه خسر كل شيء، حتى وهو يظن أنه ربح

ثانيًا: خسران الطمأنينة والقلق الوجودي الدائم

ما أكثر أولئك الذين حازوا من مظاهر الحياة نصيبًا وافرًا، فامتلأت خزائنهم، وتعددت ممتلكاتهم، واتسعت دورهم، وصارت أسماؤهم تتردد في المجالس وأحاديث الناس كما تُتلى أسماء الأبطال في الحكايات. قد يملكون من المال ما يكفي لأجيال، ومن العلاقات ما يفتح أمامهم الأبواب، ومن الامتيازات ما يُدهش الناظرين. لكنّ كل هذا، على علوّه وبريقه، لا يُجدي شيئًا إن غابت الطمأنينة، تلك النعمة الوجودية التي لا تُشترى ولا تُهدى، ولا يمنحها مال أو سلطان، لأنها ببساطة ليست من هذا العالم السفلي أصلًا، بل من ذاك العلوّ الذي لا يُنال إلا بالاتصال بخالق الطمأنينة، وبالهداية النابعة من سراج الولاية.

الطمأنينة ليست لحظة من الارتياح الجسدي، ولا استراحة مؤقتة بين نوبتين من التعب؛ إنها حالة سكون عميق تضرب جذورها في قلب الإنسان، فتهدّئ الموج المضطرب في داخله، وتثبّت روحه حين تهتز الأرض تحت قدميه، وتجعله، مهما تعاظمت الأهوال من حوله، ثابتًا كمن يعلم يقينًا أن له ربًّا لا يخذله، وإمامًا لا يغيب عن دربه. وحين تغيب هذه الطمأنينة،

لا يعود للحياة طعم ولا للنعم لذة. يتحوّل الداخل إلى أرض مهجورة، تنبت فيها الحيرة كأشواكٍ متداخلة، ويتسلل القلق إلى كل ركن من أركان القلب، حتى وإن خُدِع الناس بظاهرٍ باسم، أو بملامح متماسكة لا تعكس اضطراب الروح.

وكم من وجهٍ تراه مشرقًا، وهو في حقيقته وجهٌ مُتعب من الداخل، يُخفي خلف ابتسامته بكاءً لا يُقال، وكم من جسدٍ يتحرك بثبات، لكن روحه تسير متعثرة كمن تاه في صحراء شاسعة بلا خريطة. ذلك لأن صاحبه لم يعرف بعدُ طريق الطمأنينة، ولم يُفتح له باب الذكر، ولم يتذوق لذة القرب من الله، ولا ذاق برد اليقين في ظلّ ولاية محمد وآل محمد عليهم السلام، حيثُ وحدهم من خُصّوا بأن يكونوا مصابيح الدجى وسفن النجاة، فمن لم يسر على ضوئهم، تاه في الليل، وإن بدا له أنه في وضح النهار.

إنّ الطمأنينة لا تولد في القصور، ولا تُحصد من التجارات، بل تُثمر في قلوبٍ عرفت الله في الخفاء، وذاقت حلاوة الذكر بعيدًا عن أعين الناس، وجعلت من حب الإمام وعهده وسيرته جُزءًا من بنية الوعي، لا فكرة طارئة تزور القلب وتغادره. من جعل الإمام المهدي عجل الله فرجه حاضرًا في همومه، ودعائه، وخياراته، ونظرته للعالم، ذاق من الطمأنينة ما لا يذوقه ملوك الأرض.

وقد لخّص القرآن هذه الحقيقة الجارحة في آية واحدة تُصيب كبد المعنى، حين قال عزّ شأنه: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ**

﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [1].

فالضنك هنا لا يعني شحّ الرزق فحسب، بل هو ضيق الروح، وانقباض الوجدان، واختناق الكيان الداخلي مهما اتسع الخارج. هو أن تملك كل شيء، وتفتقد كل شيء. أن تسكن القصور، لكن قلبك لا يسكن. أن تحيطك الأنوار الاصطناعية، ولا يزال داخلك غارقًا في عتمة لا يعلمها إلا الله.

وحين يغيب الإمام عن خريطة القلب، حين لا يعود له في الوجدان أثر، ولا في الحياة حضور، تتيه النفس في متاهة بلا مرشد، وتُسحب من الإنسان سكينته دون أن يشعر، فيفقد ارتكازه، ويصبح رهينة لما حوله لا لما في داخله. ويتحول الضمير من بوصلة إلى ريشة في مهب الرياح، لا تستقر على حال.

وهنا يتجلّى أعمق أبعاد الخسران: أن يفقد الإنسان راحته لا بفعل الألم، بل بفعل الغياب. غياب المعنى، غياب الذكر، وغياب الإمام. فالطمأنينة ليست ترفًا روحيًا، بل هي أوكسجين الحياة، وجنّة الدنيا الأولى، وباب الوقوف بثبات على صراط الحق، ولو اشتدت الريح. ولا يذوقها إلا من صادق في ولائه، ووعى زمنه، وسار خلف إمامه على دربٍ محفوف بالدمع والبصيرة، ولو كان وعرًا على النفس.

---

[1] طه: ١٢٤

ثالثًا: خسران الوقت وضياع العمر في اللاشيء

من أشد ما يُبتلى به الإنسان في رحلة حياته أن يُعرض عن كنزٍ ثمينٍ يملكه وهو لا يشعر، كنزٌ يتسرّب من بين يديه دون صوت، ويتبخر كما البخار في هواء الغفلة. ذلك الكنز ليس ذهبًا ولا جاهًا، بل هو الزمن، ذاك المخلوق الصامت الذي يسير على رؤوس الأيام، ويمضي خفيفًا بلا ضجيج، لكنه يترك خلفه أثرًا لا يُمحى، وندمًا لا يُجبر. الزمن ليس مجرد وعاء للأحداث، بل هو المادة التي يُصاغ منها مصير الإنسان، وهو أثمن وديعة أودعها الله في يده، وأخطر ما سيُسأل عنه حين تنقضي رحلته وينكشف الحساب.

ولأجل هذا، جاءت سورة العصر – وهي من أوجز سور القرآن – لتضع يد الإنسان على الحقيقة العظمى التي يغفل عنها أكثر الخلق، فافتتحها الله تعالى بقَسمٍ جليل: ﴿**وَالْعَصْرِ**﴾. إنه قسم بالزمن، لا لأنه عابر، بل لأنه جوهر الكينونة، ومفتاح المصير. وكأن الله جلّ شأنه ينبه الغافلين بأن الوقت ليس رقمًا يُسجّل في الرزنامات، بل هو أنت. نعم، هو أنت تمضي. كل ثانية تمر، ليست مجرد لحظة، بل قطعة منك تسقط، لن تعود.

الوقت في منطق أهل السماء ليس ساعاتٍ نعدّها، ولا دقائق نملؤها بما تيسّر، بل هو رأس مال وجوديّ، لا يُعوَّض ولا يُشترى، من أضاعه فقد باع نفسه بثمن بخس، ومن استثمره فقد

اشترى نجاته قبل أن يُغلق باب الفرص. هذا ما فقهه أهل المعرفة حين قالوا: «**الوقتُ هو رأس مالك**»، رأسُ مالٍ إن مضى لم يترك لك فرصة لإعادة التفاوض، ولا يُمكن استرداده من الخسارة.

ولذا، حين قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إن الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما**»، لم تكن تلك دعوة للعمل المجرد، بل صرخة وعي تُوقظ النائمين في وهم الديمومة. الليل لا يهدأ، والنهار لا ينتظر، وأنت إن لم تعمل في الزمن، فإن الزمن سيعمل فيك، يحفّ جسدك، ويقضم عمرك، حتى تجد نفسك وقد انتهى بك المطاف في آخر الرحلة، دون أن تبدأها حقًا.

تأمّل في الواقع اليوم، كيف يُبدّد الناس أعمارهم وكأنها لا قيمة لها، يطاردون السراب في أروقة الترفيه، ويُسرفون في «**قتل الوقت**»، غافلين أن الوقت لا يُقتل، بل هو يقتل من يفرّط به. إننا نشهد جيلًا يغرق في أمواج الشاشات والمشتتات، لا لشيء إلا ليهرب من مواجهة المعنى، من مسؤولية العمر، ومن نداء الزمن الذي يناديه ليصحو. وكأن الزمن صار عدوًا يُراد الهروب منه، لا حليفًا يُستثمر.

لكنّ الخسارة هنا ليست مجرد تقصير في تنظيم جدول يومي، أو سوء توزيع للمهام، بل هي خسارة جوهرية تمسّ لبّ الإنسان ووجهته في الحياة. لأن كل لحظة لا تُعاش في طاعة، لا تُستنشق في ذكر، لا تُنفق في خدمة الحق، ولا تُوجَّه في تمهيد الطريق لظهور الإمام الحجة عجل الله فرجه، فهي لحظة بلا قيمة أبدية، لحظةٌ تحوّلت إلى

عبء في صحيفة الأعمال، بدل أن تكون لبنة في بناء المصير.

فالعمر أمانة، لا ملكية. الزمن عهدٌ بينك وبين ربك، لا متاعٌ تتصرف فيه كما تشاء. وإذا لم تجعل من أيامك مرآة للحق، ومصنعًا لتزكية الروح، فإنك تخون العهد وتخسر الرصيد، وستبكي يومًا حين لا يجدي البكاء، حين ترى أن كل ما جمعته من لحظات لم يُثمر لك شيئًا.

توقّف واسأل نفسك: كم من ساعةٍ أهدرتها في حديثٍ لا وزن له؟ كم من يومٍ ضاع في تتبّع ظلّ، بينما كانت هناك شمس تنتظر أن تفتح لها نوافذك؟ كم من ليلة مرّت دون أن تسجد فيها سجدة خاشعة، أو ترفع يديك بدعاء، أو تذرف دمعة من أجل الإمام الغائب الذي يعيش غربته في غيابك؟ كم من فرصةٍ مضت دون أن تضع فيها لبنةً واحدة في صرح الظهور؟ هذه هي الخسارة الحقيقية، لا ما نخسره في الأسواق، بل ما نخسره في أنفسنا.

ولذلك وصف الله هذا النوع من الخسارة بأنه خسرانٌ مبين، ظاهر لا يحتاج إلى برهان، لأنه محفور في كل ساعة مضت ولم تثمر، وفي كل يومٍ عشناه على هامش الحياة لا في صلبها. الزمن لا ينتظرنا، ولا يعودُ إلينا. وإن لم نسعَ اليوم، سنُدرك غدًا – متأخرين – أن أول ما خسرناه لم يكن الوقت، بل أنفسنا، وموعِدنا مع الحقيقة.

رابعًا: خسران البصيرة والانخداع ببهارج الحياة

ليس كل خسارةٍ تُقاس بما نُزع من اليد، فقد يكون البلاء الحقيقيّ في ما وُضع فيها بكثرة. ليست كل الخسائر فقرًا في المال، أو عجزًا في البدن، أو قِلّة في الحظ، بل إن من أفدح الخسران أن يُغدَق على الإنسان من نِعَم الله حتى تفيض عليه، لا لتُقرّبه من المنعم، بل لتغرقه في لذّاتها وتُغشي بصره عن حقيقتها. هناك، في هذا الإفراط، تبدأ الخسارة الأشدّ: حين يرى الإنسان النعمة ولا يرى من أنعم، ويأنس بالدنيا وينسى الآخرة، ويتشبّث بالزخرف الفاني ناسيًا أنه خُلق للسُموّ لا للسُكون.

ليست الدنيا في ذاتها مذمومة، ولكنها تُصبح مصيدة حين تتسلّل إلى القلب وتتربّع فيه، فتجعل من الإنسان عبدًا للوفرة، أعمى عن الفقر الحقيقي الذي هو فقر البصيرة. وهنا يختلّ الميزان وتتيه البوصلة، فيُحسن الإنسان ما لا ينبغي، ويستهين بما لا يُحتمل التفريط فيه، ويغدو البريق الظاهري حجابًا يحول بينه وبين نور الحقّ.

وقد لخّص أمير المؤمنين علي عليه السلام هذا المنزلق الخطير في كلمته الجامعة: «**الدنيا تغرّ وتضرّ وتمرّ.**» ثلاث كلمات، لكنها تكفي لهدم الأوهام كلّها. فهي تغرّ من غفل عن حقيقتها، وتضرّ من اتّخذها قرارًا نهائيًّا، وتمضي عن من خُدع بها كأنها لم تكن. فالخسارة الكبرى ليست في زوال الدنيا من بين يدي الإنسان، بل

في استقرارها في قلبه حتى لا يرى غيرها، ولا يرجو سواها، ويعيش سجين لذّاتها وهو يظن نفسه في نعيم.

إنّ البصيرة، في منطق الإيمان، ليست مجرّد علمٍ يُكتسب، ولا تراكم ثقافة أو فكر، بل هي نورٌ يُقذَف في القلب من الله، نورٌ به يُفرّق بين النور والظلمة، بين المكر والتقوى، بين الراية الحقة وتلك التي تستعير ألفاظ الحقّ وتخونه. وإذا غابت هذه البصيرة، صار الإنسان كمن يمشي في ليلٍ دامس على حافة هاوية، تحرّكه الرياح ولا يدري أين المصير.

وفي هذا العصر الذي نعيشه، عصر التلبيس المُتقَن، والعناوين المتشابهة، والحقائق المُزوّقة، باتت الفتنة تتقن لغات العقل، وتُحسن استخدام الشعارات، وتلبس ثوب الحرية لتسوق الناس إلى عبودية الشهوة، وتُطفئ نور الولاية باسم الانفتاح، وتُزيّف الهُدى بلغة الإنسانوية الزائفة. في هذا الزحام، لا يُنقذ الإنسان شيء أعظم من بصيرته، تلك النعمة التي لا يهبها الله إلا لمن صفّى قلبه، وطهّر نواياه، وربط فكره بالوحي، وعينه بالإمام.

ولعلّ من أصدق ما وُصف به هذا الضياع ما قاله الإمام الحسين عليه السلام في بيانه العميق لحال الناس عند اشتداد الفتنة:

«الناس عبيد الدنيا، والدين لعقٌ على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا مُحّصوا بالبلاء قلّ الديّانون.»

كلمات لا تصف زمنًا بعينه، بل تكشف طبيعة النفس حين

تُفتن. فالدين يتحوّل عند البعض إلى لافتة مصلحية، يُرفع عند الرخاء، ويُطوى عند الشدّة، لأن البصيرة غابت، وأصبح القرار خاضعًا للمنفعة لا للهداية.

وهذا هو لبّ الخسارة الروحية: أن يفقد الإنسان قدرته على التمييز، فلا يرى الفرق بين جبهة الحسين وجبهة يزيد، ولا يُدرك أن راية المهدي عجل الله فرجه ليست شعارًا يُرفع في المهرجانات، بل طريقٌ يُعبّد بالوعي والتضحية والولاء. كم من إنسانٍ عاش في رغدٍ من النعمة، ومات وقد خسر كل شيء، لأنه اتّخذ الرفاه غاية، لا وسيلة، وعبد نعمة الله ولم يعبد الله نفسه، وغفل عن أنّ العافية التي لم تسجّل له موقفًا، ستسجّل عليه صمتًا وجفاءً يوم لا ينفع الندم.

فإياك أن تُخدع ببريق الحياة، أو أن تنحرف بك النعمة عن وجهتها. سلّ نفسك كل صباح: هل هذه النعمة تقرّبني من الإمام، أم تصرفني عنه؟ هل تفتح لي عين البصيرة، أم تغلقها بستائر الغفلة؟ لا تفرح بالعطاء حتى ترى أثره في القلب، ولا تطمئن للراحة ما لم تكن على درب المسير. فالمعيار ليس في الامتلاك، بل في الاتّجاه.

وكم هو مؤلم أن تستيقظ الروح متأخّرة، بعد أن يُبعثر الإنسان سنواته في تتبّع الزينة، وينسى أن الهدف ليس الجمال الزائل، بل الوصول إلى عين الجمال، إلى نور الله في أرضه، إلى الإمام الذي ينتظر من يفيق. فلا تُؤجّل يقظتك، ولا تُسلّم بصيرتك، فزمن

الغفلة يسرق من الإنسان جوهره، وما أسوأ أن تصل إلى آخر الطريق وأنت لا تعرف إلى أين كنت تسير.

خامسًا: خسران العلاقات والإنسانية

ليست الخسارة الحقيقية محصورة في الأرقام والحسابات البنكية، ولا تُقاس بعدد الفرص الضائعة في الأسواق والمشاريع، بل ثمّة خسائر أعمق، لا تُرى في شاشات التداول ولا تُسجَّل في دفاتر التجارة، بل تكتبها الأيام على صفحات القلب، وتُترجمها الروح بوَحشتها، حين يجد الإنسان نفسه وسط الزحام، وحيدًا كأنما في صحراء، غريبًا بين وجوه مألوفة، معزولًا رغم كثرة الرفاق، لأنه لم يبنِ علاقاته على أصلٍ من الله، ولا على مقصدٍ يتجاوز ذاته، فبات محاطًا بأشباح لا بأرواح، وبأنسٍ زائف لا بصحبةٍ حقيقية.

ذلك أن الروابط البشرية لا تُثمر حين تُنسج بخيوط المصلحة، ولا تدوم إن قامت على لهوٍ عابر، أو مشاركة في فراغ. إنّ العلاقات التي لا تُغذّيها القيم، ولا تنبت في أرض الإيمان، يذبل نبتها سريعًا، وتتقشّر أوراقها عند أول ريح، فتسقط سقوطًا صامتًا يكتشفه الإنسان حين يحتاج إلى ظلٍّ فلا يجده، وإلى كتفٍ فلا يلقاه، وإلى قلبٍ يُصدّق ألمه فلا يُصغي إليه أحد.

إنّ الإنسان الذي يعيش بلا مشروع، لا يمكنه أن يُقيم علاقات تُضيء. فالحياة إن لم يكن لها معنى، ستفرغ علاقاتها من المعنى.

ومن لا يحمل في قلبه هَمًّا أوسع من ذاته، سيظلّ يدور في فلك مصالحه، ولو بدا متصلاً بالناس، لكنه في الحقيقة منفصل عنهم. لا حرارة في مودّته، ولا صدق في ودّه، ولا أثر من نور. ثمّ يمضي الزمان، ويشيخ الجسد، ويبرد الوهج، فإذا به عبءٌ ثقيل على من حوله، لا يُفتقد إذا غاب، ولا يُفرح به إذا حضر، لأنه لم يزرع في قلوبهم بذور معنى، ولا ربطهم بنور رسالة، ولا كان لبنةً في بناء روحيّ مشترك.

وقد صوّر القرآن هذه النهاية المأساوية للروابط الواهية في قوله تعالى: ﴿**فَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ**﴾.

فلا يبقى من تلك العلاقات إلا فتات الذكريات، وقد تمزّقت الخيوط التي كانت تظنّها متينة، لأنّها ما رُبطت بالله، ولا عُقدت بنيّة القربى في الحق، بل قامت على مصالح طارئة، وشهوات عابرة، ومواقف مائعة لا تصمد في أتون البلاء.

حينها، يتكئ الإنسان على وهمٍ كان يظنه سندًا، ويجد نفسه وحيدًا في لحظةٍ لا ينفع فيها إلّا الصدق، ولا يبقى فيها إلّا من عاش لله، ومن أحبّ لله، ومن تواصى بالحقّ لا بالمجاملة. وتلك هي الحقيقة الجارحة التي لا يراها كثيرون إلا حين تتكشّف الأقنعة، وتنكشف معادن القلوب عند أول امتحان.

أمّا من يعيش لله، ويتمحور حول إمام الحقّ، فإنه لا يعرف الغربة، وإن بدا وحيدًا. فهو ليس وحيدًا ما دام قلبه عامرًا بالنور،

وما دام يسعى لبناء عالمٍ يليق بكرامة الإنسان، في ظلّ خلافة الله على الأرض. إنه يسير، وإن قلّ الركب من حوله، لكنه يسير في طريق مأهول بالملائكة، محفوف بدعاء الأولياء، مشدودٌ بنظر الإمام الغائب إليه، كما ينظر القائد إلى جنوده الذين لم يخونوا، ولم يساوموا، ولم يستبدلوا.

فالسؤال الأهم ليس: كم من الناس حولك؟ بل: ما الذي جمعهم بك؟ هل كانت بينكم صلاة؟ هل جمعكم حبّ الحسين؟ هل كانت العلاقة جسرًا إلى الله، أم كانت لعبةً اجتماعيةً تنتهي عند أول اصطدام بالحقّ؟

ذلك هو الميزان الذي ينبغي أن تُوزن به العلاقات. فالصحبة التي لا تُعين على القيام لله، لا تزيد صاحبها إلا خِفّة. والصداقة التي لا تُشعل في القلب شوقًا إلى الظهور، قد تكون عبئًا في ساعة الغيبة، حين يُفتش الإنسان في سجلّ عمره فلا يجد أثرًا إلا للهو والضياع.

ولذلك، فإنّ الخسران في العلاقات لا يظهر في العدد، بل في الجوهر. فكم من صديقٍ واحدٍ في الله أنقذ عمرًا بأكمله، وكم من مئةٍ من الصحبة الزائفة لم تترك إلا الضجيج. ومن هنا نفهم لماذا قيل: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا، فطوبى للغرباء.**» هؤلاء الغرباء ليسوا معزولين عن الناس، لكنّهم مرتبطون بالله، ثابتون على العهد، لا يسايرون الباطل ولا يتنازلون عن نورهم ليُرضوا ظلام الآخرين.

إنّ من لم يُدرك هذا، فاته أن يكون من أبناء العصر الذين وصفهم الله بالنجاة:

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

فلا نجاة بلا إيمان، ولا إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا تواصٍ، ولا تواصٍ إلا بالحقيقة والصبر عليها. هؤلاء وحدهم من تُزهِر علاقاتهم بالهداية، وتُثمر صحبتهم نورًا، لأنهم ما عاشوا لأنفسهم، بل من أجل مشروعٍ إلهيّ لا يموت.

فمن أراد أن يربح حياته، فليُصلح علاقته بالله أولًا، ثم بإمام زمانه، ثم بالناس على قاعدة الولاء والحقّ لا المصلحة والهوى. فإن فعل، تحوّلت صداقاته إلى بناء، وعلاقاته إلى شواهد، وعمره إلى تجارة رابحة، لا تبور عند الله، ولا تخذله عند المحنة، بل تشهد له في لحظة الحقّ، وتُضيء له قبره، وتستقبله في يومٍ لا يُنجّي فيه إلا الصدق.

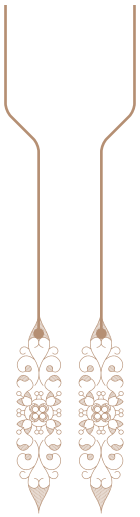

الخسران في الدنيا: نظرة شاملة

ليس الخسران في الدنيا محصورًا في ضيق ذات اليد، ولا في تعثّر المسار المهني، ولا في خسارة الفرص التجارية كما يتصوّر الأكثرون، حين يُقصرون ميزان النجاح والخسارة على الأرصدة والوظائف والظهور الاجتماعي. بل إنّ الخسران الحقيقيّ أعمق من ذلك بكثير، وأشدّ فتكًا من أن يُقاس بمعايير السوق، لأنّه خسرانٌ يطال روح الإنسان لا جيبه، ويهدم داخله دون أن يُحدث صوتًا، ويُطفئ أنواره من حيث لا يشعر، حتى إذا أفاق، وجد نفسه في ظلام لا يُشبه الفقر، بل فراغًا وجوديًا لا يُداويه مال، ولا تُغطّيه مظاهر.

ذلك الخسران يبدأ خافتًا، حين يغيب الهدف، ويفقد الإنسان إحساسه بالغائية، فيمضي في الأيام بلا وجهة، وينغمس في الأعمال بلا بوصلة، فيذوي من داخله وهو يتحرّك من خارجه. وإنّ أخطر ما في هذا النوع من الخسارة أنه لا يبدو كارثيًا في ظاهره، بل يتستّر خلف حياةٍ مزدحمة، وعلاقات كثيرة، وإنجازات شكلية. لكنّ

القلب وحده يعلم الحقيقة، حين تضيق الروح رغم سعة الدنيا، وتبرد المشاعر رغم كثرة المديح، ويتسرّب القلق إلى الأعماق رغم وفرة الوسائل.

ثمّ يمتدّ هذا الخسران إلى الزمن، فيُهدر الإنسان عمره في ما لا ينفع، وتضيع ساعاته في ما لا يُثمر، وتتآكل أيامه في حركة لا تؤدّي إلى غاية. يركض لاهثًا خلف تفاصيل، لكنّه لا يبني بها معنى، وكأنّ حياته تُمضى كحبرٍ يُسكب على ورقٍ لا يمتصّه. وإن لم ينتبه، فإنّ أعزّ ما يملك – وهو العمر – يُستنزَف دون أن يترك خلفه أثرًا.

ولأنّ الإنسان اجتماعيٌّ بطبعه، فإنّ هذا الخسران لا يتوقف عند ذاته، بل يتعدّاه إلى محيطه، فتبهت علاقاته، وتبرد صداقاته، وتتفكّك روابطه، لأنه لم يُؤسّس علاقاته على رسالة، ولم يكن له في حياة الناس أثرٌ رساليّ، بل مرّ بهم كما تمرّ الموجة على الصخر، دون أن تغيّر فيه شيئًا.

ويبلغ الخسران ذروته حين يُكشف الغطاء، وتُسحب السكينة، ويواجه الإنسان نفسه دون أقنعة. وقد لا يحدث ذلك إلا حين يُطرق باب الموت، أو يفقد عزيزًا، أو يتهاوى ما كان يستند إليه. هناك، فقط هناك، يُدرك فداحة ما فاته، ويستفيق على الحقيقة القاسية: أنّه عاش خارج المشروع الإلهي، لم يكن له موقع في حركة الهدى، ولا حظّ من نور الإمام، ولا سهم في طريق الظهور، بل كان يعيش لذاته، يدور في فلك هواه، يُفرط في العمر، ويحسب أنه يُحسن صنعًا.

إنّ هذه الخسائر – ضياع الغاية، انطفاء الطمأنينة، تآكل الوقت، ذبول البصيرة، وتشوّه العلاقات – ليست جراحًا منفصلة، بل جرحًا واحدًا في موضعٍ واحد: غياب الإيمان الحي، وانطفاء شعلة الولاية، وتهميش الإمام عن مركز حياة الإنسان. فإذا غاب الإمام عن الوعي، حضرت الفوضى، وتمكّن الخواء، وتصدّرت البدائل، فصار الإنسان يعبد ذاته، وهو يظنّ أنّه على الطريق.

ولذلك، فإنّ سورة العصر لم تكن بيانًا أخلاقيًا عابرًا، ولا نصًّا وعظيًا يُقرأ في المجالس فحسب، بل كانت صرخة وجوديّة تُنذر، وتفتح العين، وتوقظ النائم من سُبات الغفلة، لتضعه أمام سؤالٍ لا يحتمل التأجيل:

هل أنا من الرابحين، أم من الخاسرين؟

هل أنا من الذين يمشون نحو الإمام، أم من الذين يسيرون في اتجاه مضادّ وهم لا يشعرون؟

إنّ الخلاص من هذا الخسران لا يكون إلا بركائز أربع، أقامها الله في نهاية السورة كنجاة لا يُستعاض عنها:

الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. وهذه ليست مجرّد فضائل أخلاقية يُتزيّن بها، بل هي أعمدة المشروع الإلهي في الأرض، وجسور العبور نحو زمن الظهور، وهي علامات الانتماء إلى «**أبناء العصر**»، أولئك الذين ربحوا حياتهم لا لأنّهم عاشوا أكثر، بل لأنهم أحسنوا العيش في

ظلّ التكليف، وأداروا أعمارهم على محور الإمام عجل الله فرجه الشريف، وانتظروا لا بقلوبٍ خاملة، بل بعقولٍ تبني، وأيدي تُمهّد، وهمم لا تعرف المساومة.

فمن أراد أن ينقذ دنياه من الخسران، فليحمل في قلبه نور الإمام روحي وأرواح العالمين له الفداء، وليجعل من أيامه سلّمًا نحو الله، ومن أعماله لبنات في بناء زمن الهدى، فإنّ العصر يُقسم، والخسران يتحقّق، والرابحون وحدهم هم الذين اختاروا أن يكونوا في زمنٍ كثرت فيه الطرق، من أبناء طريقٍ واحد: طريق الحق.

الخسران في الآخرة: المصير المهلك في ضوء سورة العصر

في مشهد الآخرة، لا يشبه شيءٌ شيئًا مما عرفناه في الدنيا. كل الموازين تتبدّل، وكل المعايير تُقلب. هناك، لا صوت يعلو على صوت العدل الإلهي، ولا قيمة تُقاس بمقاييس المال والجاه والنجاح الظاهري، بل يُوزن الإنسان بكليّته، بنيّته قبل عمله، وبيمينه قبل مظهره، وبصِدق قلبه قبل سائر مظاهره. وفي ذلك الموقف، من كان قد باع آخرته بدنياه، وظنّ أن العمر طويل، وأن باب التوبة مفتوح على مصراعيه أبد الدهر، يفاجَأ أنّ الصفحة قد أُغلقت، والباب قد أُوصد، وأن ما كان يراه بعيدًا صار أقرب من نفسه إليه.

هناك، عند ذلك المصير المهيب، يُكشَف للإنسان مقدار ما

ضيّع من الفرص، وما أهدر من النور، وما أعرض عنه من دعوات الهداية، فيدرك فجأة أن الحياة التي عاشها كانت وهمًا جميلاً غافلاً، وأن كل ما كان يعدّه فوزًا دنيويًا لم يكن إلا سرابًا يحسبه الظمآن ماءً. وتتجلّى أمامه، بمرارة لا تُوصف، معاني الخسارة الكاملة التي تحدّث عنها القرآن بعبارته الصارخة: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾.

وليس الخسران في هذه الآية كما نفهمه في سوق التجارة أو في ميزان الربح والخسارة الدنيويين، بل هو أشمل من ذلك بما لا يُقاس، وأشدّ وقعًا بما لا يُحتمل. إنه خسران الذات، وخسران المصير، وخسران الكرامة الأبديّة، وخسران مقعدٍ في جوار الرحمن. إنه ذلك الضياع الأبدي الذي لا تعاد فيه الكرة، ولا تُمنح فيه فرصة ثانية، ولا يُمهل فيه صاحب الغفلة ليستدرك، فقد انتهى زمن العمل، وبدأ زمن الجزاء.

ولذا، حين يُقسم الله تعالى بالعصر، وهو الزمان المتحرّك بكل ما فيه من تحولات ونذر، فإنّ هذا القسم بحدّ ذاته تنبيهٌ صادم، فيه تحذيرٌ من نفاد الوقت، وتذكير بأن كل لحظة تمرّ، تقتطع من رصيد العمر قطعةً لا تعود. ثم يأتي بعدها التقرير الجازم ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾، ليضع الإنسان أمام مرآة مصيره، مجرّدًا من كل تسويف وأعذار، يرى نفسه كما هي: مهدّد بالخسران إن لم يسلك سبيل النجاة.

والعجيب، بل المؤلم، أنّ هذا الخسران ليس لقلّةٍ في البيان،

ولا لضيقٍ في الرحمة، ولا لندرة في سبل الهداية، بل لأن الإنسان، بطبعه، يميل إلى التعلّق بالعاجل، والانغماس في الظاهر، والغفلة عن المصير، حتى يُصبح كالذي يركض نحو الهاوية ظانًّا أنه يسير إلى نصرٍ وهناء. ومن هنا، جاءت الآية لتنتشلنا من هذا الوهم القاتل، وتنبهنا أن الخسارة ليست احتمالًا بعيدًا، بل واقعًا محتمًا، إلا لمن تدارك نفسه واستثناه الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

وإن أعظم من جسّد النجاة من هذا الخسران في التاريخ الإسلامي هو الإمام الحسين عليه السلام، الذي وقف على تراب كربلاء يعلن للعالم كلّه: أن لا طريق للنجاة إلا بالثبات على الحق، ولا عزّ إلا بالعقيدة، ولا خلود إلا بالصدق مع الله. لقد قدّم دمه ودم أحبّته قرابين على مذبح النجاة، ليكتب للأمة درسًا خالدًا: أن الخسران لا يُقاس بعدد الأتباع، ولا بقوة السلطة، بل يُقاس بمن وقف في ميزان الله مفلحًا، وإن قلّ عددهم، كما قال: «**ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ قد ركز بين اثنتين، بين السلة والذلة، وهيهات منّا الذلة**».

وهكذا تتكامل الصورة: سورة العصر تضع الإنسان في مواجهة الحقيقة، وتجرده من الوهم، وتعيد ضبط البوصلة الأخروية، والإمام الحسين عليه السلام يترجم هذا المبدأ في ميدان الفداء، ليكون شاهدًا حيًا على معنى النجاة ومثالًا خالدًا لرفض الخسران.

فلنقف عند هذه السورة، لا كآية نرددها في صلواتنا ختامًا، بل كمرآة نقرأ فيها أعماقنا، ونراجع من خلالها حساباتنا، ونتأمّل في

مصيرنا. لعلّنا نكون، بصدق النية وحرقة القلب، من أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...**﴾، فإن لم نكن من أهل الإيمان والعمل، فنسأل الله أن يجعلنا من المشتاقين إليهما، والسائرين في طريقهما، قبل أن تشرق شمس الآخرة على قلوبٍ أظلمت، وأعمارٍ انتهت، ومصائر حُسمت.

أولًا: خسران النفس وذهاب الذات إلى العذاب

إنّ من أشدّ المشاهد رعبًا في سجل الخسارات التي يُحدّثنا عنها القرآن الكريم، ليس أن يخسر الإنسان ماله، ولا أن يضيع منه متاع الدنيا، ولا أن تُسلب منه مكانته أو سلطته، بل أن يكون الثمن ذاته نفسه، أن تكون الخسارة هي «**الإنسان نفسه**»، بروحه وهويّته وكرامته، في لحظةٍ لا يمكن فيها شراء النفس من جديد، ولا تعويضها، ولا افتداؤها بأي شيء، كما قال الله تعالى: ﴿**لَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ**﴾. هناك، تتبدّى صورة الخسران في أقسى تجلياتها، حين لا يعود الإنسان مالكًا لذاته، لأن ذاته قد سُلِبت، ودُفِعت إلى العذاب، وابتلعتها النار.

إنها ليست استعارة ولا تصويرًا بلاغيًا، بل واقعًا وجوديًا تقشعرّ له الأبدان، نطق به الكتاب العزيز في آية قاصمة، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾[1].

(١) سورة الزمر: ١٥.

تأمّل... أن يخسر الإنسان نفسه وأهله، أي أن يُجرد من أعزّ ما يملك: هويّته التي كان بها إنسانًا، وعلاقاته التي كانت له مأوى، فيُحشر وحيدًا، مفصولًا عن كل صِلة، مطرودًا من كل رحمة، محجوبًا عن كل نور، وقد غدا وجهه شاهدةً على الخسران، وصوته أنّةً في نار لا تهدأ.

وليس هذا الخسران فجائيًا، بل هو نتيجة لمسار طويل من الانفصال عن الحق، والتغافل عن عهد العبودية، والانقطاع عن الولاية التي بها قِوام الدين. فمَن عاش عمره لا يعرف إمام زمانه، لا يسير على نهجه، ولا ينخرط في مشروعه، ولا يُسلّم له أمره، فقد حُكم عليه من الآن بموتٍ باطن، وإن ظل حيّ الجسد، كما جاء في الحديث الشريف الصريح: «**من مات ولم يعرف إمام زمانه، مات ميتةً جاهلية**».

وهذه المعرفة التي يتحدّث عنها الحديث، ليست مجرد معلومة تُحفظ، ولا اسمٍ يُتداول، ولا دعاء يُتلى في المناسبات، بل هي انتماءٌ حيّ، وانخراطٌ عملي، وولاءٌ يُترجم في السلوك والموقف والانتماء، إنها ارتباطٌ بالحقّ عبر حجّته، ووقوفٌ على خطّ النور في زمن الظلمة، وتفاعلٌ وجدانيّ وروحيّ مع الإمام الغائب كأنه حاضر، ومع مشروعه كأنه واقع، ومع قضيته كأنها قضيتنا.

ومن لم يبلغ هذا المستوى من الوعي والولاء، فإنه، وإن صلّى وصام، قد يكون على شفير الهاوية، لأنّ نفسه مفصولة عن

القيادة الإلهية، سائرة في دربٍ يبتعد عن الله كلّما ظنّ أنه يقترب. إنّ فقدان النفس هنا ليس فيزيائيًّا، بل معنويًّا، بل وجوديًّا: فالنفس التي لم تهتدِ بنور الله، ولم تتصل بمن نصّبه الله، ولم تسلك الصراط، تُصبح فريسةً سائغة للظلمات، وتغدو كما وصفها الإمام علي عليه السلام: «**ميتة الأحياء، ناطقة الأموات**».

وهذا هو الخسران الأعظم، أن يتحوّل الإنسان من كائنٍ مُكرّم خلقه الله بيده، إلى طريدةٍ في أودية العذاب، لأنّه خسر نفسه، لا لأنّ أحدًا سلبها منه، بل لأنه سلّمها للغفلة، وأعرض بها عن هدى الله، وأدار وجهه عن الإمام. فماذا يبقى بعد أن تُسلب النفس؟ لا شيء. وما من خسران أفدح من هذا.

ثانيًا: خسران الأعمال وسقوط رصيد العبد

من أقسى الصور التي قد يواجهها الإنسان في يوم القيامة، أن يصل إلى ذلك الموعد المصيري محمّلًا بما يظنه رصيدًا ضخمًا من الأعمال، موقنًا أنه قد سلَك طريق الطاعة، وأدّى ما عليه من الفرائض، فإذا به يُصدم بحقيقة لا تخطر له على بال: أن كلّ ما عمله، من صلاةٍ وصيام وصدقاتٍ وأذكار، قد تلاشى كأن لم يكن، وتناثر كما يتناثر الغبار في الهواء، لا يُمسك، ولا يُوزَن، ولا يُجدي، فيُقال له في لهجة القضاء الإلهي: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا**﴾ [1].

الفرقان: ٢٣

ولعلّ هذا هو أحد أكثر أوجه الخسران إيلامًا، لأنّ الإنسان قد يصبر على ضياع الدنيا، لكنه لا يطيق أن يرى أعمال عمره الطويل وقد ضاعت هدرًا. غير أن الأمر ليس متعلّقًا بعدد الركعات ولا كثرة الصيام، بل بحقيقة النيّة، وصحّة الانتماء، ونقاء الولاية، كما علّمنا النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) حين قال:

«إنما الأعمال بالنيّات، ولكل امرئٍ ما نوى...»

فالنية ليست أمرًا خفيًا على الله، بل هي الميزان الأصيل الذي توزن به الأعمال، وهي الفارق بين عبادةٍ تُرفع إلى السماء، وعبادةٍ تُردّ على صاحبها. فكم من عبدٍ ظنّ نفسه من الفائزين، وهو لا يعلم أنّ عمله قد بُني على غير الإيمان، أو نُفِّذ على غير طريق الإمام، أو أُدّي لمقصدٍ غير الله، فأصبح عمله بلا روح، كالجسد بلا نفس، أو كالصوت بلا معنى.

وقد جاء في الأحاديث أنّ من أعجب المشاهد الأخروية، أن يُبعث العبد بصحيفةٍ مملوءة بالأعمال، فيراها الناس ويعجبون، لكنّ الله ينظر فيها، فلا يرى فيها أثرًا من الإخلاص، أو يجدها خارجة عن نهج الولاية، أو مشوبة بعجبٍ ورياء، فيُحبطها كلّها، ويُقال له: ليس هذا مما نُريد، ولا هذا ما أمرنا به، إنّك عبدت هواك لا ربّك، وسلكت سبيلك لا سبيل وليّك.

وفي حديث النبي (صلى الله عليه وآله) عن المفلس، نلمح هذه الحقيقة المروّعة:

«المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وأخذ مال هذا، وسفك دم هذا...»

لكنّ المعنى أعمق من مجرد ظلم العباد، إنّه إفلاسٌ في جوهر العمل ذاته، لأنّ ما يُؤتى به قد يبدو عبادة، لكنه في ميزان الله لا يعدو كونه ظاهريًّا، مُفرغًا من الصدق، منفصلًا عن النور، مجانبًا للعروة الوثقى.

فما قيمة الصلاة إن لم تكن بإمامة الإمام؟ وما أثر الصيام إن لم يكن تحت راية الحجّة؟ وما وزن العبادات إذا كانت مقطوعةً عن النور الإلهي الذي يجري في هدي أهل البيت عليهم السلام؟ إنها عبادات قد تُكثّر صحيفة العمل، لكنها لا تفتح أبواب الجنان، لأنها لم تُؤدَّ بإذن، ولا بصدق، ولا على بصيرة.

وهذا هو خسران الحسنات، الذي يُثقِل على الروح، ويقصف ظهر الإنسان في موقف لا يُحتمل فيه الانهيار. خسرانٌ يجعل المرء يظن أنه في ذروة القرب، فإذا به في قاع البُعد، يتوسّل بدموعه ولا يُستجاب له، ويعرض عليه ما ظنّه حسناته، فلا تُقبَل، ويُقال له: لم تكن هذه لنا، ولا كانت في سبيلنا، فاذهب بها إلى من عملت لأجله.

إنه خسرانُ الظنّ الصالح بالذات، وخسرانُ الأمل الكاذب، وخسرانُ السنوات التي ذهبت في عبادة لم تُبنَ على قاعدة الإيمان، ولا جرت في نهر الولاية. وهو خسرانٌ لا يُعوّض، لأنه يأتي في زمنٍ

لا مزيد فيه للعمل، ولا وقت للاستدراك. ولذلك، كان من أصدق الأدعية: «اللهم اجعل عملي كلّه صالحًا، ولوجهك خالصًا، ولا تجعل فيه لأحدٍ غيرك شيئًا...

ثالثًا: خسران الشفاعة وذهاب وسيلة النجاة

في يومٍ تُطوى فيه الدنيا وما فيها، وتتبدّل فيه الأرض غير الأرض، وتُنصَب الموازين، ويقف كلُّ إنسانٍ أمام ربه فردًا لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، يكتشف كثيرٌ من الناس أن آخر ما كانوا يعوّلون عليه قد ذهب أدراج الرياح؛ إنهم خسروا الشفاعة. وليس ذلك لأنها لم تكن موجودة، بل لأنهم لم يكونوا ممن يستحقونها.

فالشفاعة ليست بابًا مشرعًا لكل من طرقه، ولا هبةً عشوائية تُعطى بغير حساب، بل هي وسيلةُ نجاةٍ مخصوصة، منحها الله لخاصّته، وجعل لها شروطًا لا تُنال إلا بصدق الانتماء، وصفاء العقيدة، والارتباط الحقيقي بسلسلة الهداية الإلهية التي تبدأ من النبوة وتنتهي بالإمامة. وهي ليست دعوى على اللسان، ولا شعارًا يُرفع، بل هي طريق، ومسار، وعهدٌ بين العبد وربّه، لا يُكتب إلا بمداد الإيمان، ولا يُختم إلا بخاتم الولاية.

فالذي لا يعرف الإمام، ولا يسير في نهجه، ولا يتّبع سبيله، ولا يُمهّد لظهوره، هو في الحقيقة يرفض وسيلة نجاته، وينقض ميثاقه مع السماء، حتى وإن ظنّ أنه على خير. إنه كمن يتنكّر لسفينة النجاة وهو في خضم الطوفان، فلا عجب إن غرق. فالشفاعة انعكاسٌ

لمحبّة محمد وآل محمد عليهم السلام، بل هي تجلٍّ حيّ لمكانتهم عند الله، ومن لم يكن في ساحة حبّهم وولائهم واتباعهم، كيف له أن يُنتظر أن يكون من مشمولين بشفاعتهم؟.

وقد عبّر القرآن عن هذا الخسران بصرامة لا تحتمل التأويل، حين قال: ﴿**فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾ (١)، وما ذلك إلا لأنّهم لم يكونوا من أهلها، ولا من المقبولين لها، فقد سلكوا سبلًا أخرى، وجعلوا لأنفسهم أولياء غير الله ورسوله، ولم يرتضوا بالإمام حاكمًا على عقولهم وقلوبهم.

وفي المقابل، يبيّن الله ميزان القَبول في قوله: ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ**﴾ (٢)،و»مَن ارتضى» ليس من صلّى وصام فقط، بل من رضي الله عنه لإيمانه، وولايته، واتباعه الحق، وثباته على العهد، وحرصه على النور في زمن الغيبة، وانتظاره لمن أعدّه الله ليملأ الأرض قسطًا وعدلًا.

الشفاعة ليست تعويضًا عن التقصير، بل هي وسيلة إنقاذٍ لمن سار على الطريق، ولكنه عثر، أو لمن صدق في التوجّه، وإن لم يبلغ الكمال. إنها ليست تذكرة مجانيّة لعبور جسر الصراط، بل هي يدُ رحمةٍ تمتدّ لمن كان قلبه مع أهل بيت النبوّة، وإن تعثّرت جوارحه، لكنها لا تُمدّ لمن أعرض وتكبّر، أو من نكص بعد العهد، أو من جعل الإمام غريبًا في حياته ومهجورًا في فكره وسلوكه.

المدثر: ٤٨

الأنبياء: ٢٨

ومن خسر الشفاعة، فقد خسر الوساطة الوحيدة التي يمكن أن تقف بينه وبين العدل الإلهي الصارم، وبات عليه أن يواجه المصير وحده، دون سند، ولا شفيع، ولا معين. يقف في ساحة الحساب مجردًا من الغطاء، عاريًا من الحماية، وقد خذل نفسه حين ظنّ أن الشفاعة تُنال بالتمنّي، لا بالاتباع.

ولعلّ من أصدق ما يُقال في هذا المقام: إن الشفاعة تُعطى لمن سعى إليها، لا لمن تفرّج عليها. تُعطى لمن نصر الإمام في غيبته، وصدّق به في زمن الارتياب، وحفظ خطه حين تاهت الخطوط، وحمل اسمه حين اختفى في غياهب الغفلة. ذلك هو «**من ارتضى**»، وذلك هو من لم يخسر الشفاعة.

رابعًا: خسران الجنة والدخول في الندامة السرمدية

إنّ أعظم ما يُمكن أن يُمنى به الإنسان من خيبة في الآخرة، أن يُحرم من الجنة بعد أن أمضى عمره وهو يظنّ أنه من أهلها، فإذا به في لحظة الحقيقة الكبرى يكتشف أن المفاتيح التي بين يديه ليست إلا أوهامًا، وأن الباب الذي كان يظنه مفتوحًا قد أُغلق، لا لأنّ الله أغلقه في وجهه، بل لأنّ قلبه لم يكن يومًا أهلًا للعبور.

الجنة ليست دارًا توزع على من يتمنّى، ولا مقامًا يُنال بدعوى الإيمان، بل هي ثمرةُ سلوكٍ طويل، وعاقبةُ طريقٍ محفوفٍ بالمجاهدة، ومآلُ نفوسٍ صفتها الطهارة، وقلوبٍ سمتها التخلّي عن التعلّق بما سوى الله، وعقولٍ صاغتها المعرفة، وسلوكٍ رسمته

الطاعة، وولاءٌ صادق للإمام، وانخراطٌ وجودي في مشروع السماء.

إن الجنة في جوهرها ليست مكانًا نُقل إليه الأجساد فحسب، بل هي حالةُ قُربٍ من الله، لقاءٌ أبدي بالحقيقة التي طالما سعى إليها السالكون، وهيبةُ النور التي لا يُطيقها إلا من عاش حياته يتهيّأ لرؤيته، ويرتّب قلبه على مقاس محضره. ومن لم يُهذّب نفسه، ولم يُخْلِ قلبه من شوائب الدنيا، ولم يلبس ثوب الطهارة المعنوية، كيف له أن يُؤهَّل لهذا اللقاء؟.

يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ﴾ (١)

وهذا الرجاء ليس أمنية خاملة، بل سعيٌ مستمر، وعملٌ دؤوب، وارتباطٌ حيّ بمن جعله الله بابًا للقائه. وفي زماننا، لا طريق إلى هذا اللقاء إلا عبر صاحب الزمان عجل الله فرجه، فبقدر ما يعرفه الإنسان ويتبعه وينتظره ويُمهد له، بقدر ما يقترب من الجنة. فالإمام المهدي عليه السلام ليس عنوانًا على هامش العقيدة، بل هو قلب العقيدة النابض، ومفتاح الدخول إلى دار الرحمة الأبدية.

إن من خسر هذا الطريق، فقد خسر الجنة، حتى وإن أكثر من الطاعات، لأن الطاعة التي لا تنبع من نبع الولاية تبقى ناقصةَ الروح، ميتةَ المعنى. وقد يُصلي ويصوم، ولكنه يفعل ذلك في غير سبيل الإمام، في غير مركب النجاة، وفي غير مشروع الله في الأرض، فلا يُثمر عمله نورًا، ولا يُثمر قلبه قربًا، بل يبقى واقفًا عند أبواب

العنكبوت: ٥

الجنة دون إذن بالدخول.

ويا له من موقف يفتّ القلب، أن يقف العبد يوم القيامة، وقد تعب وسهر، وظنّ أنه من المفلحين، فإذا به يسمع النداء الذي يهزّ كيانه: لم تُدخِلَ نفسك تحت ولاية الإمام، لم تنتظر صاحب الأمر، لم تُوالِ من أمر الله بولايته، فكيف تُريد أن تُكرم بلقاء الله، وأنت ما استجبت لداعي الله؟!.

ذاك هو الخسران الحقيقي، لا خسران المال ولا الجاه، بل خسران الرحمة، خسران دار السلام، خسران الحضور في حضرة النور، خسران الجنة بما فيها من نعيم وسكينة ورضوان. وحينها تبدأ الندامة، ندامة لا تُنسى، ندامة لا نهاية لها، ندامةٌ سرمدية تنخر في وجدان العبد، فيتمنى لو كان مع الإمام، لو عرفه، لو أطاعه، لو مضى في أثره، ولكنّ الأوان قد فات.

فليست الجنة صدى التمنيات، بل ثمرة التزكيات، ونتيجة المعرفة والسير في خط أولياء الله. ومن خسر الجنة، فقد خسر كل شيء، وخاب الخاسرون.

خامسًا: الخسران الأبدي الذي لا رجعة بعده

إن من أوجع أنواع الخسارة، وأشدّها وطأة على القلب والعقل والروح، أن يخسر الإنسان الآخرة، لا على نحوٍ مؤقتٍ، ولا بما يُمكن تعويضه، بل خسرانًا لا نهاية له، ولا مخرج منه،

ولا شفاعة تُنقذ، ولا فرصة أخرى تعيد إليه ما فاته. إنه الخسران الأبديّ، حين تُغلق الأبواب، وتُطوى الصحائف، وتُقفل أبواب الرحمة، فلا يُسمع صوت استغاثة، ولا يُفتح باب رجاء، ولا يُمدّ حبل نجاة.

لقد خُلقت الدنيا دارًا يُمكن فيها التدارك، ومُدّت للإنسان فيها فُرص التوبة، وجُعل الليل والنهار ميدانًا للاستغفار والرجوع، وابتُعث الأنبياء وأُنزِلت الكتب، وأُقيمت الحُجج، وبيّنت السُبل، فما من عذرٍ يبقى للعبد إذا هو أعرض، واستكبر، وركب هواه. لكن الآخرة ليست كذلك، إنها دار الجزاء لا دار العمل، دار الحصاد لا دار البذر، فإذا بلغها الإنسان وهو مفلسٌ من الإيمان، منقطعٌ عن الإمام، فاقدٌ لعملٍ مقبول، فإنّه يدخل في نفق الخسران السرمدي، الذي لا يُفضي إلاّ إلى عذابٍ متزايد، لا يُخفّف، ولا يُرفع، ولا يُستبدل.

وقد رسم القرآن هذا المشهد في آية ترتعد لها الأرواح، حيث يقول الحقّ تعالى: ﴿**فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا**﴾ (١)

ويا لها من كلماتٍ تقطع كل أمل، وتُحطم كل رجاء، وتعلن على رؤوس الأشهاد أنّ من دخل في هذا المصير فقد انقطعت به السبل، فلا رحمة، ولا مغفرة، ولا حتى فناءٌ يُنهي العذاب، بل عذابٌ لا يزداد إلا شدّة، وندمٌ لا يزداد إلا توغُّلًا في الألم.

---

(١) النبأ: ٣٠

ويصف الله يوم القيامة بأنه يومٌ ينشغل فيه كل امرئٍ عن غيره، حتى عن أقرب الناس إليه، كما في قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (١)

في ذلك اليوم العظيم، لا أحد يلتفت إلى أحد، ولا تُجدي الأنساب، ولا تنفع العلاقات، بل يُحاسب الإنسان بما كسب، ويُجازى بما سعى، وتُوزن نواياه قبل أعماله، ويُنظر في ولائه قبل طاعته، فإن كان مع الإمام، وتحت راية الحقّ، نجا، وإن لم يكن، خسر كل شيء.

وحين نتأمل في سورة العصر، نُدرك أنّ الله لم يترك العباد هملاً، ولم يُلقي بهم في متاهة المصير دون هدى، بل رسم طريق النجاة بأربعة أركان عظيمة، كلها مرتبطة بمقام الإمام، وحقيقة الانتظار، والعمل ضمن المشروع الإلهيّ في زمن الغيبة.

يقول تعالى: **﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾**: وهذا الإيمان ليس مجرد نطقٍ باللسان، بل معرفةٌ حقيقية بالله وبحجّته، وإذعانٌ لعهد الغيبة، واستقرارٌ على عقيدة الحقّ.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: أي صدّقوا إيمانهم بالسلوك، وساروا في طريق الإمام، وجعلوا حياتهم ترجمةً حيّة للولاية.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾: أي بلغوا الرسالة، ومهّدوا لظهور الإمام،

---

(١) عبس: ٣٤-٣٧

ودعوا إليه، وثبّتوا غيرهم على طريقه، وجعلوا من مشروع المهدي قضيتهم الكبرى.

﴿**وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾: أي ثبتوا في عهد الغيبة، ولم تزلزلهم الفتن، ولم تُغْرِهم الدنيا، ولم تَفْتِنْهُم الانتكاسات، بل بقوا على العهد، حتّى النفس الأخير.

فمن لم يكن من هؤلاء، فهو في خطرٍ عظيم، لا لأنّ الله ظلمه، بل لأنّه هو الذي فرّط في عمره، وأعرض عن الهدى، وأضاع بوصلة النجاة. ومن دخل في الخسران الأبدي، فقد فاته كل شيء، وانقلبت أيامه إلى ندم، وساعاته إلى حسرة، وأمانيه إلى وبال.

فيا ليت من يدرك هذا المعنى اليوم، يجعل من سورة العصر مرآة قلبه، وخريطة نجاته، ودليل حركته، ويسأل نفسه كل صباح: هل أنا من هؤلاء الأربعة؟ وهل انتظاري للإمام مشروع حياةٍ أم أمنية عابرة؟ وهل أعددت لنفسي زادًا يُنقذها في يومٍ لا يُنقذ فيه أحدٌ أحدًا؟.

ذلك هو السؤال المصيري، وذلك هو الفاصل بين النجاة والخسران، بين الجنّة والعذاب، بين الأبد السعيد، والخسران السرمدي الذي لا رجعة بعده.

الخسرانان، والخطّ المستقيم بين الدنيا والآخرة

حين يقرأ الإنسان قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾،

فإنّه لا يمرّ بهذه الحقيقة الإلهية كما يمرّ الغافلون على العبارات، بل ينبغي أن يتوقف عندها كما يتوقف العاقل على أبواب المصير. إنّها ليست جملةً عابرة، ولا حكمًا غيبيًا مُعلّقًا في فضاء القدَر، بل مرآة شاسعة عاكسة لحقيقة الكائن البشري، تُلزمه أن يزن بها أيامه، وأن يُقيّم من خلالها كلّ لحظة يعيشها منذ طلوع وعيه الأول إلى أن يُسلّم روحه وهو على فراش النهاية.

فالخسارة التي وُصف بها «**الإنسان**» هنا ليست تجنيًا من الله عليه، ولا حكمًا سابقًا يُسلب منه حرية المصير، بل كشفٌ دقيق عن طبيعة الانحدار الذي يقع فيه حين ينفصل عن نور الله، ويتنكّر لصوت الفطرة، ويُعرض عن وليّه، ويكفر بعهد الغيب، ويستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير. إنّه خسارٌ متجذرٌ في الانفصال، وخذلان ناتج عن الإعراض، وسقوط يبدأ من لحظة ترك الإمام، وتضييق أفق الحياة على المتاع العابر.

لقد تبيّن لنا في المقاطع السابقة أن الخسران ليس عالَمين منفصلين: أحدهما في الدنيا والآخر في الآخرة، بل هو خيطٌ واحد، يمتدّ من هنا إلى هناك، يبدأ من موضع الغفلة، ويصل إلى حافة العذاب، لا ينقطع في المنتصف، ولا ينفصل من طرفيه. فخسارة الدنيا ليست إلا أول الحكاية، وبداية النزيف، وعند الآخرة يكتمل المشهد، وتُعلن النهاية، ويُقال للغافل: «**لقد انتهى الأمر، ولم تبقَ لك فرصة، فاذق العقوبة كما أضعت النعمة**».

ذلك الذي ضيّع بوصلته في الدنيا، وتاه في دوامات الزينة،

وركض خلف السراب، وجعل كل جهده في اقتناص اللذائذ، وجمع الأموال، ونيل المكانة، بينما قلبه خاويًا من ذكر الله، غافلًا عن مهديّه، متنكّرًا لعهد الانتظار، مأخوذًا بلعبة الحياة حتى نهايتها، بأيّ منطقٍ يطلب النجاة؟! بأيّ وجهٍ يقف يوم القيامة منتظرًا جنّةً لم يزرع فيها خيرًا، ولم يسقها بدعاء، ولم يُضيئها بدمعة حنين، أو بسجدة ليل، أو بدمعة على الحسين؟!

وكذلك مَن عاش في هذه الدنيا فاقدًا للسكينة، لا يعرف طعم الاطمئنان، وقد أغلقت روحه أبواب النور، وتاهت بصيرته في ظلمات الحيرة، تتقاذفه المخاوف، وتستنزفه الأوهام، وهو يحسب أنّه على شيء، فإذا هو في التيه، كلما ظنّ أنه اقترب، ابتعد، وكلما حسب أنه نجا، غرق. هذا الإنسان، إذا بُعث، فبأيّ زادٍ يواجه ساحة الحساب؟! ما الذي يحمله في يده؟! إن كان قد أضاع عمره في طلب ما لا يُبقي ولا يُرضي، فما الذي تبقّى له؟!

ثم إنّ مَن ضيّع نعمة الوقت، وأهدر لحظات عمره في ما لا يُثمر، وانشغل بكل شيء إلا ربّه، وعاش عمرًا كاملًا لم يقف فيه بين يدي الله خاشعًا، ولم يُفتح له قلبٌ للقرآن، ولم يذرف دمعًا على مصاب وليّه، ولم يرفع يديه في دعاء الفرج ولو مرة بصدق، هذا كيف يُستقبل يوم القيامة؟! بأيّ صحائف؟! بأيّ أعمال؟! وكيف لا يكون حاله إلا كما قال الله: ﴿**أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ**﴾ (١)

(١) الزمر: ٥٦

إنها حسرة تتجاوز الآلام كلّها، حسرة لا تُطفئها دموع، ولا تُخفّفها شفاعة، لأنها تأتي بعد فوات الوقت، وبعد أن انقطع الرجاء، وبعد أن رآى الإنسان نفسه خاويًا، مفلسًا، بلا شيء.

بهذا المعنى، تكون الدنيا والآخرة خطًا مستقيمًا واحدًا، لا مفترق بينهما، فمن سار هنا على الصراط، وصل هناك إلى النور، ومن انحرف في بدايته، انتهى إلى قاع الجحيم. إنّ كل فعلٍ في الدنيا – صغيرًا كان أو كبيرًا – إنما هو بذرة، إمّا أن تُثمر نورًا في الجنّة، أو نارًا في الجحيم. وكل لحظةٍ تمرّ لا يُبنى فيها لبنةٌ على صرح الآخرة، فإنّها تتساقط كهباءٍ لا قيمة له، ثم يعود الإنسان ليُطالب بثمرٍ لم يغرس له أصلًا.

ومن هنا، تتجلّى عظمة هذا «**الاستثناء الإلهي**» الذي تنقشع به الظلمة، وتشرق به سُبل النجاة، ذلك الذي ختم الله به سورة العصر حين قال: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾.

إنه استثناء يُعيد الأمل، ويُرسي خارطة النجاة، ويُحدّد بدقّة مَن الذي يخرج من دوامة الخسران، ويصعد في مدارج الفلاح. فـ«الإيمان» ليس مجرد تصديقٍ نظري، بل نورٌ حيٌّ يُضيء البصيرة، ويربط القلب بالإمام، ويُعيد تشكيل الحياة وفق أمر الله ووحيه. و«العمل الصالح» ليس جملةً فضفاضة، بل هو ترجمة حية لهذا النور، وامتدادٌ عمليّ للإيمان، يعبّر عن نفسه في الواقع، في الصدق، في خدمة المستضعفين، في التمهيد للظهور، في الكلمة

الصادقة والموقف الحقّ.

أما «**التواصي بالحق**»، فهو انتقالٌ من الفردية إلى الرسالية، من التديّن المنغلق إلى التفاعل الواعي مع الواقع، حيث يكون المؤمن داعيةً لا صامتًا، وصاحب همّ لا متفرّجًا، لا يُنقذ نفسه فقط، بل يحمل غيره على جناح النصيحة، ويصير شاهدًا على الناس كما كان الرسول شهيدًا. وأمّا «**التواصي بالصبر**»، فهو العهد الأبدي في زمن الغيبة، عهد البقاء على طريق الإمام مهما طال الزمن، وعهد التمهيد له دون كلل، والصدق في الانتظار دون شكّ، وعدم المساومة مهما اشتدّت الظلمات.

بهذه الأربع، يخرج الإنسان من مسار الهلاك، ويركب سفينة النجاة، ويُقوّم حياته على أسس ربانية، ويصبح من أهل الوعد، لا من أهل الوعيد. بها يتحقق «**الاستثناء**»، ويُكسر قانون الخسران العام، ويبدأ مسارٌ جديد نحو الله، نحو الإمام، نحو الآخرة.

وهكذا، تتجلّى لنا رسالة سورة العصر بكل عظمتها: إنها ليست مجرّد ثلاث آيات نُتْلِيها على عَجَل في صلواتنا، بل صرخة ربّانية تهزّ أعماق الكيان، ودعوة إلى مراجعة الحياة من أساسها، وتحديد للمصير بين خسارتين لا فكاك منهما إلا بمنهج ربانيّ واضح. وبين هاتين الخسارتين، يمتدّ خطّ النجاة، مرسومًا بأربعة أعمدة من نور، من سلكه نجا، ومن أعرض، هوى، ولو ملك ما ملك من زخارف الدنيا.

ذلك هو الخط المستقيم، وذلك هو الميزان الرباني الذي لا يميل، فمن أراد النجاة فليُدخل نفسه في هذا الاستثناء، قبل أن يُقال له يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون: «**لقد كنت في غفلة من هذا، فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد**».

الباب الرابع: الركائز الأربع الواردة في الاستثناء الذي ورد في السورة

- أولًا: الإيمان
- ثانيًا: العمل الصالح
- ثالثًا: التواصي بالحق
- رابعًا: التواصي بالصبر

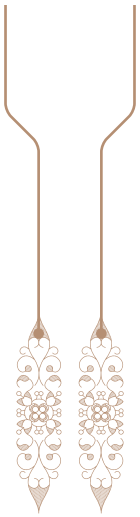

تمهـــيد

حينما يستفتح الله تعالى في سورة العصر طريق النجاة من الخسران بكلمة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فإنه لا يُلقي وصفًا عابرًا، ولا يورد شرطًا عاديًا، بل يكشف عن أولى درجات السُلّم الذي يُنقذ الإنسان من الغرق في التيه، ويعيده إلى طبيعته الأولى، تلك الفطرة التي فُطر عليها، فطرة العبودية لله ومقام الكرامة التي خُلق لها.

ليس الإيمان هنا مجرد فضيلة أخلاقية أو عقيدة قلبية خاملة، بل هو الخطوة الأولى في رحلة الصعود نحو النجاة، والباب الذي إن لم يُفتح، ظلّ الإنسان يدور في متاهات الخسارة مهما بلغت مظاهر نجاحه الدنيوي.

الإيمان ليس اعتقادًا ساكنًا...

الإيمان – كما يصوّره القرآن – ليس حالةً داخلية ساكنة، ولا تصورًا ذهنيًا يعيش في عقل الإنسان دون أن يمتدّ إلى أفعاله وسلوكه. الإيمان في حقيقته موقف شامل، يعيد صياغة حياة

الإنسان من جديد، ويجعله جزءًا من مشروع إلهي متحرّك في الزمان والمكان.

فحين يقول المرء: «**آمنت**»، لا يعني أنه تبنّى فكرة دينية، بل يعني أنه قرّر أن يغيّر وجهته بالكامل، وأن يلقي بولائه بين يدي الله ورسوله، وأن يرضى أن يكون القرآن هو الحكم بينه وبين نفسه، وأن يُسلِّم زمام أمره إلى الإمام المعصوم، فيتبع نوره، ويستظلّ بظلّه، ويضع قلبه بين يدي ربّه، لا يطلب إلا رضاه، ولا يرجو إلا وجهه.

الإيمان هو البصيرة...

والحق أن الخسران الذي تحذّر منه سورة العصر، ليس في المال ولا في الجاه، وإنما في الذات والغاية. هو خسران من لم يعرف لنفسه طريقًا، ولا لحياته معنى. ومن أجل أن يتفادى الإنسان هذا المصير، فإن أول ما يحتاج إليه هو البصيرة.

الإيمان هو تلك البصيرة التي تفتح للإنسان عينيه على حقيقة وجوده. كم من إنسان مضى عمره دون أن يسأل نفسه: لماذا خُلقت؟ كم من قلب خفق لسنين طويلة، ولم يعرف يومًا ربّه؟ الإيمان هو النور الذي ينقذ الإنسان من هذا العمى. هو الذي يجعل البصيرة أقوى من البصر، فيميّز صاحبه بين الحق والباطل، ويقرأ الوجود من منظور آخر، لا تنطلي عليه الزخارف، ولا تخدعه العناوين. يقرأ كل شيء كما أراد الله أن يُقرأ، بعينٍ ترى بنور الله. نعم قد يقول البعض آن هذا مقام لا يناله إلا ذو حظٍ عظم، وأقول المطلوب

منا السعي نحو تحصيل هذه البصيرة من خلال العلم المقرون بالعمل الصادق الذي لا يشوبه رياء ولا سمعة ولا طلب جاه.

الإيمان ولاء وولاية...

لكن الإيمان لا يكتمل في مدرسة القرآن إلا إذا اقترن بالولاء. فالإيمان الحق ليس مجرد تصديق بوحدانية الله ورسالة نبيّه، بل هو التزامٌ بما رتّبه الله بعد نبيّه، وهو الإقرار بالإمامة كما أُعلن عهدها في الغدير، والانتماء الصادق لنهج الحسين، وانتظار القائم بقلب موقن، كأنك تراه.

فلا ينفع الإيمان الذي لا يُفضي إلى ولاية محمد وآله، ولا يثمر في القلب حبًّا لعلي، واتباعًا لسبيل الزهراء، وسلوكًا في درب الحسين. الإيمان الذي لا يرتبط بعقيدة الإمامة، يظل ناقصًا، هشًّا، لا يحمي صاحبه من الزلل، ولا يقوده إلى النور. فكل إيمان لا يجعل الإنسان في خطّ الولاية، هو إيمان مكسور، لا يكتمل به دين، ولا يُرجى به خلاص.

الإيمان معرفة وصلة وعبودية...

وهكذا يتبيّن أن الإيمان الذي يطلبه الله في سورة العصر، ليس لفظًا يُقال، بل معرفة تعيش في القلب، وصلةٌ لا تنقطع، وعبودية تتحوّل إلى سلوك يومي. الإيمان الحقيقي يُنبت الصلاةَ في القلب، ويجعل القرآنَ رفيقًا، والليلَ سجودًا، والنهارَ سعيًا في رضا الله.

هو إيمان لا يرضى أن يكون عابرًا، لا يحضر في الجمعة ويغيب في السوق، لا يظهر في الطقوس ويختفي في المعاملات. بل هو إيمان يجعل لله نصيبًا من كل حركة وسكنة.

ومن هنا نفهم لِمَ بدأ الله الاستثناء من الخسران بالإيمان؛ لأنه الأصل الذي تُبنى عليه كل أعمال الصالحين. فلا عمل يرتفع إلا إذا سبقه إيمان، ولا طاعة تُقبل إلا إذا خرجت من قلبٍ مؤمن. فالإيمان هو الجذر، وكلّ عملٍ بعده فرع، ومن لا جذر له، فلا ثمرة له.

الإيمان، الحسين، والمهدي، ومشروع الخلاص...

وحين نُطلّ على مدرسة أهل البيت عليهم السلام، نرى أن الإيمان عندهم ليس حالة ساكنة في ضمير الفرد، بل حركة حية في قلب الأمة. المؤمن عندهم ليس من يُسلّم بالغيب فقط، بل من يُعدّ للظهور، ويهيّئ الواقع، ويجعل من كل تفاصيل حياته تمهيدًا لعصر القائمأرواحنا فداه.

هو من يركب سفينة الحسين عليه السلام، ويحمل في قلبه بكاءً لا ينطفئ، ودعاءً لا يفتر، وانتظارًا لا يذبل، وعملًا لا يتوقّف. الإيمان عندهم مشروع إصلاح، لا شعار ارتياح. ثورة على الظلم، لا تكيّف معه. وعيٌ بالزمن، لا انكفاء على الذات.

المؤمن هو من بنى نفسه بالإخلاص، وزوّج تقواه بحبّ آل

محمد صلوات الله عليهم، وأسس بيته على الولاء، ومجتمعه على النصح، وتحرك في الحياة كأنه جندي في جيش الإمام الغائب، يُمهّد، ويُنقّي، ويزرع في طريق الظهور.

ذلك هو الإيمان الذي أرادته سورة العصر: وعيٌ لا يغفو، وبصيرة لا تتردد، وصلاة لا تنقطع، وعهد لا يُنقض. فمن امتلك هذا النور، فقد وضع قدمه على أولى درجات النجاة من الخسران، وسلك الطريق إلى العمل الصالح، ثم إلى التواصي بالحق والصبر.

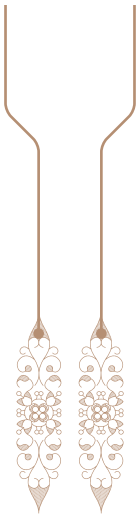

أولًا: الإيمان – النور الأول في وجه الخسران

حين يفتتح الله تعالى طريق النجاة من الخسران في سورة العصر بكلمة: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، فإنه لا يطرح مجرد فكرةٍ معنوية عامة، بل يُعلن عن أول معراج النجاة، وأعظم سُلّم يخرج الإنسان من هوّة الخسارة، ويعيده إلى مقامه الفطري، يعيده إلى مقام العبودية والتكريم.

وحين نتأمّل في سبب تقديم الإيمان على غيره في طريق النجاة من الخسران، نجد أن السرّ في ذلك عميق وعظيم. فالله تعالى لم يستثنِ من خسران الدنيا والآخرة إلا من تحقّق في قلبه الإيمان، لأن كلّ عمل، مهما بدا نبيلاً، لا يزن شيئًا ما لم يُبنَ على أساس الإيمان. الصدقة التي تُعطى دون نية صافية لا تُرفع، والجهاد الذي يُخاض بلا بصيرة لا يُثمر، والسعي الذي لا ينبع من وعيٍ بالله وولاءٍ لنهجه، يبقى حائرًا في دروب التيه.

الإيمان هو البداية، وهو الأصل الذي تُوزن به النوايا، وتُمحّص به الأعمال. من دونه، تبقى الحركة في ظاهرها، والجهد

في صورته، بينما الروح خالية من النور، والعمر يتسرب في مسارب الغفلة. ولهذا، كان الإيمان هو النور الأول الذي يضيء للقلب طريق الله، وهو المفتاح الذي يُفتح به باب القبول، والسُلّم الذي تصعد به النفس من وادي الخسران إلى آفاق النجاة.

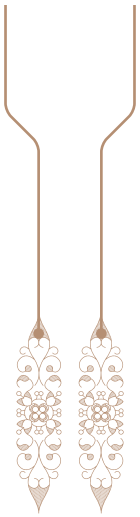

ثانيًا: العمل الصالح – ثمرة الإيمان، وتجلي النجاة في ميدان الواقع

حين يتلو المؤمن آيات سورة العصر، ويبلغ قوله تعالى: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾، يدرك أن الإيمان وحده، على علوّ مقامه، لا يكفي لأن يُنجي صاحبه ما لم يتحوّل إلى حركة، وما لم يجد له في الحياة أثرًا ملموسًا، يُرى في الجوارح، ويُقاس بالأفعال، ويُترجم في المعاملة والسلوك. فالله لم يَعُدْ بالفلاح لمجرّد الإيمان، بل جعل من العمل الصالح ركنًا ملازمًا له، لا ينفكّ عنه، ولا يتحقّق بدونه.

العمل الصالح، في منطق الوحي، ليس فعلًا طيبًا يُنجز على سبيل الصدفة أو العادة، ولا حركة عابرة في فضاء الخير، بل هو خلاصة وعيٍ إيمانيّ عميق، ينبع من يقينٍ قلبيّ، ويتوجّه بنيّة خالصة إلى وجه الله الكريم، ويخضع لميزان الشريعة، ويتناسق مع سبيل الولاية والحق. إنه عمل يتجاوز حُسن الظاهر إلى صدق الباطن، ويقوم على قصدٍ مستقيم، ومقصدٍ ربانيّ، بحيث لا يضلّ العامل في وجهته، ولا تزيغ به النوايا، وإن حسُنت الصور.

فحين ينهض الإنسان ليُصلّي، أو ليواسي محتاجًا، أو ليُصلح ذات بين، أو ليحمل همّ أُمّته، فإن تلك الأعمال لا تُحسب صالحةً لمجرّد حُسنها في عين الناس، بل تُوزَن بنيّتها، وتُعرض على ميزان الصدق، ويُنظر فيها: هل هي لله أم للنفس؟ هل توافق أمر الله، أم تخضع لهوى النفس أو لعُرف المجتمع؟ من هنا، يفهم المرء أنّ العمل الصالح ليس هو «**العمل الحسن**» بالمفهوم العرفيّ، بل هو العمل «**المرضيّ**» في ميزان الله، المتّصل بالمرجعيّة العليا لرب العالمين.

والعمل الصالح في هذا السياق، ليس هامشًا في حياة المؤمن، بل هو مناط القبول، وبوّابة النجاة، وصورة الإيمان في الواقع. فالإيمان، مهما كان نقيًّا في القلب، لا يكون مُنجيًا إذا بقي محبوسًا في الوجدان، لا تُترجمه اليد، ولا يُجسّده الموقف، ولا يظهر في العطاء أو في السلوك. إن الإيمان الذي لا يصلي صاحبُه، ولا يتحرّك به ضميرُه، ولا يُصلح فيه مجتمعه، هو إيمان أجوف، لا يقوى على حمل ثقل النجاة.

ولذا، جاء ترتيب القرآن دقيقًا، حين قرن الإيمان بالعمل الصالح، ليقول: إن النجاة ليست للمؤمنين بالقول، ولا للعارفين بالمبدأ، بل للذين مزجوا الإيمان بالفعل، فكانوا صورةً متحرّكة للعقيدة. أولئك الذين لا يكتفون بالنية، بل يشقّون دروب الدنيا بعزم من النور، وحركة منسجمة مع أمر الله، وانحياز دائم للحقّ وأهلِه.

فمن أراد أن ينجو من الخسران، عليه أن يسأل نفسه لا عن «**ماذا أؤمن؟**» فحسب، بل عن «**ماذا أفعل بهذا الإيمان؟ وكيف ينعكس على سلوكي وقراراتي وحياتي اليومية؟**». فهناك فرق عظيم بين إيمانٍ يُحبَس في زوايا القلب، وإيمانٍ يتحوّل إلى نورٍ يمشي به صاحبه بين الناس، فيأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويُصلح، ويُعين، ويعبد، ويُضحي.

إن العمل الصالح، بهذا المعنى، هو امتحان صدق الإيمان، وهو الوسيلة التي بها يُترجم الدين إلى حياة. ولولا العمل الصالح، لبقيت العقائد مجرّد أفكار، والعبادات طقوسًا خاوية، والقلوب متديّنة دون أن تتطهّر. فلا عجب إذًا أن تكون ثاني خُطوة في سُلّم النجاة هي: العمل الصالح.

العمل الصالح: إيمانٌ يتجسّد في معارج الحياة

إذا كان الإيمان هو البذرة الإلهيّة التي تُغرس في أعماق القلب، وتُروى بدموع التوبة وماء المعرفة، فإنّ العمل الصالح هو الشجرة التي تنمو من تلك البذرة، وتُورق في مسالك الحياة، وتُثمر في المواقف، وتُعطي طَيبها في سلوك الإنسان وكلامه وتعاملاته. فليس الإيمان مجرّد فكرة عابرة، ولا هو دعوى يُردّدها اللسان دون شاهدٍ من العمل، بل هو حرارة في القلب تُلهب الجوارح، ونور في الروح يُشعّ على السلوك، وحقيقة إذا استقرّت في الباطن ظهرت آثارها جليّة في الظاهر.

تأمّل في حال من إذا رأيته، ألفيت لسانه ذاكرًا، وقلبه خاشعًا، وجوارحه مسارعة إلى البرّ، لا يترك بابًا من أبواب الخير إلا طرقه، ولا يشهد منبرًا للهداية إلا حضره، يتقدّم إلى الصلاة كما يتقدّم العاشق إلى محبوبه، ويواسي الفقير كأنّ حاجته هي، ويدعو للفرج كأنّه الحامل لهمّ الأمة كلّها، ويذوب حزنًا عند ذكر الحسين، ويشدّ عضده بنهضته كأنّه من أنصاره في كربلاء... فاعلم أنّ هذا الإنسان قد سكن الإيمان في قلبه حقًّا، لا كضيفٍ عابر، بل كمليك متوّج، وأنّ نور الله قد أحيى فيه الروح، وبثّ فيه معنى الحياة.

لكن بالمقابل، كم من النفوس تتوهّم أنّها مؤمنة، وتتكلّم عن الدين، وتجادل في العقائد، وتدّعي القرب من الله، غير أنّ حياتها لا تشهد لها، وسلوكها لا يزكّيها، ولا تجد في صلاتها روحًا، ولا في أقوالها صدقًا، ولا في تعاملها أمانة، ولا في وجهها نورًا، ولا في اهتمامها أثرًا لشوقٍ إلى عدل الله الموعود أو غيرةٍ على شؤون الأمّة. فمثل هذا الإيمان، وإن سُمّي إيمانًا، إلا أنّه لا يجاوز حناجر أصحابه، إذ لم يبلغ القلوب، ولم يتحوّل إلى فعل، ولم يُترجم إلى مواقف.

ولهذا كان القرآن دقيقًا وحاسمًا حين أكّد مرارًا وتكرارًا على اقتران الإيمان بالعمل، لا كاقتران شكليّ، بل كترابط وجوديّ لا ينفكّ، فجعل من هذا التلازم قانونًا في ميزان النجاة، وأساسًا للتمييز بين الادّعاء والحقيقة. قال تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**﴾، ليُبيّن أنّ العمل وحده لا يكفي إن لم

يكن مسنودًا بإيمان صادق، كما أنّ الإيمان لا يكتمل ما لم يُثمر عملًا صالحًا. فهما معًا، كالقلب والنبض، كالجذر والثمرة، لا يستقيم أحدهما دون الآخر.

العمل الصالح: طريقُ الإنسان إلى الخلود

في أصل خلقته، خُلِق الإنسان كائنًا فانِيًا، مؤقّتًا في إقامته على هذه الأرض، تُعدّ أنفاسه، وتُحصى ساعاته، ويُطوى سجلّ عمره متى ما بلغ أجله، فيرحل عن الدنيا كما جاءها: وحيدًا، مجردًا، ضعيفًا. غير أن الرحمة الإلهيّة لم تتركه حبيس هذه الفُسحة الزمنيّة المحدودة، بل فتحت له بابًا نحو الأبد، ومنحته سبيلًا ليمدّ أثره إلى ما بعد القبر، ويُعانق به الخلود، ويصعد من ضيق الأرض إلى رحاب السموات، وذلك هو «**العمل الصالح**» الذي يُزهر في الدنيا، ويثمر في الآخرة.

فما من شيء يُرافق الإنسان بعد انقطاعه عن الحياة مثلما يُرافقه عمله الصالح؛ إذ هو الذي لا يُدفن حين يُدفن الجسد، ولا يصمت حين تُخرس الشفاه، بل يظلّ ينمو في سجلّ أعماله، ويزداد إشراقًا في صحيفة حسابه، حتى بعد أن تُغلق عليه أطباق القبر. وهو وحده الذي يعبُر به من عالم الفناء إلى رحاب البقاء، وهو الوسيلة التي بها يبلغ الإنسان درجة الحياة الحقيقيّة، تلك التي لا تنقطع ولا تذبل ولا يُهدّدها موت أو فناء.

وقد أضاء القرآن هذا المعنى في آيةٍ بالغة الدقّة والروعة، فقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (١)، ليجعل من العمل الصالح سلّمًا للقول الطيّب، ورافعًا له إلى بارئه. فما كلّ كلامٍ جميلٍ يرقى إلى مقام القبول، ولا كلّ دعاء أو ذكر يبلغ مراتب العرش، إلا إذا كان مسنودًا بعمل، مؤيَّدًا بفعل، مُصدّقًا على الأرض قبل أن يُطلب له الصعود إلى السماء.

فمن ظنّ أن الأقوال وحدها كافية، وأنّ الكلمات الجميلة تغنيه عن الالتزام الفعليّ، فهو واهم. إذ لا قيمة لوعدٍ لا يُترجم إلى وفاء، ولا لِحُسنِ لفظٍ لا يُجسَّد في سلوك، ولا لمعرفة لا تُثمر التزامًا. فالإيمان الحقّ لا يكتفي بأن يُقال، بل لا يتحقّق إلا إذا عُمِّد في الواقع بعملٍ يرفعه، وبجُهدٍ يُثبت صدقه، وبأثرٍ يُظهر وجوده.

وهكذا، فإنّ العمل الصالح لا يُمثّل مجرّد طاعة أو عبادة، بل هو امتدادٌ للروح، وترسيخٌ للحق، وجسرٌ يربط العبد بربّه، ويشدّه إلى حياةٍ لا تنتهي. ومن أراد أن يخلُد، فليزرع في أيامه ما يدوم بعد أيامه، وليصنع من عمله في الأرض سُلّمًا يُصعد به إلى السماء.

العمل الصالح: تشريع الارتباط بالنهضة والانتظار

حين ننظر إلى العمل الصالح من نافذة مدرسة أهل البيت عليهم السلام، لا نراه محصورًا في دائرةٍ ضيّقة من الأعمال الفرديّة أو الطقوس المجتزأة، بل نراه يتّسع حتى يغدو مشروع حياة، وخطّ

(١) فاطر: ١٠

ارتباط واعٍ مع مسار التاريخ الإلهي، ومع الغاية الكبرى من وجود الإنسان، ألا وهي: إقامة العدل، وإظهار الدين، وتمهيد الأرض لحكومة الحق بقيادة وليّ الله الأعظم، الإمام المهدي بن الحسن (عجّل الله فرجه الشريف).

فالعمل الصالح في منطق آل محمد، لا ينفصل عن الرؤية المهدوية، ولا يتجرّد عن شعلة النهضة الحسينية، بل هو امتداد روحيّ ومعنويّ لذلك الدم الطاهر الذي سُفك في كربلاء من أجل بقاء الدين، وامتداد عمليّ وعقائديّ لذلك الغياب المهدوي الذي ينتظر فيه المؤمنون ليس زمان الإمام فقط، بل ينتظرون أنفسهم أن يكونوا على مستوى النصرة، والتمهيد، والتأهّب الكامل.

ليس العمل الصالح مجرّد أن تصوم نهارًا، أو تتصدّق بمال، أو تُكثر من النوافل، رغم ما في هذه الأعمال من الفضل والبركة، ولكنّه أن تجعل من حياتك كلّها سعيًا باتجاه اليوم الموعود، وأن توظّف طاقتك وموهبتك ومكانك في المجتمع بما يخدم مشروع الإمام الغائب، فتكون جزءًا من خريطة الظهور، لا هامشًا في كتاب الانتظار.

إن العمل الصالح في عصر الغيبة هو أن تكون حسينيّ التوجّه، مهدويّ الغاية، تعبّد طريقك بالفعل، لا بالأمنية. أن تُقيم الصلاة كما أقامها الحسين يوم عاشوراء، تحت السهام، في لُجّة الحرب، لا على هامش الراحة؛ أن تقف بوجه الظلم كما وقف هو، وأن تزرع في كلّ شبرٍ من حياتك نواةً للعدل، ومحورًا للإصلاح.

هو أن تجعل من بيتك بيتًا ينتظر، لا بالأدعية فحسب، بل بالوعي والتربية والمواقف. أن يكون بيتك حسينيّ الجوهر، مهدويّ الاستعداد، مشحونًا بقيم الشهادة والعدل والطهارة. هو أن تحوّل عملك اليومي إلى لبنةٍ في صرح العدالة الإلهية، وأن تُحوّل دراستك إلى إعدادٍ للنفس والعقل لخدمة المشروع الإلهي، وأن تجعل من علاقاتك الاجتماعية وشبكة معارفك جسرًا لنشر الخير، لا ساحةً للفُرقة أو الغفلة أو الذاتية.

العمل الصالح في زمن الغيبة، ليس تديّنًا انزوائيًا، بل التزامٌ رساليّ، يُترجم فيه الإيمان إلى موقف، والولاء إلى مشروع، والانتظار إلى حركة. وهو امتحان يوميّ تُسأل فيه: هل أنت ممّن يُمهّد للظهور؟ أم ممّن يُثقل الأرض بالغفلة؟ هل تنتظر الإمام بعينٍ باكية؟ أم بذراعٍ عاملة؟ هل دعوتك خالصة لله؟ أم ممزوجة بهوى النفس؟ هل إصلاحك يبدأ من نفسك ويمتدّ إلى الناس؟ أم هو كلام يُقال ولا يُفعل؟

ذلك هو العمل الصالح في قاموس أهل البيت: جهادٌ نقيّ، عبادةٌ حُبلى بالموقف، وانتظارٌ لا يهدأ.

العمل الصالح: منهجٌ متكامل لا لحظة عابرة

إنّ من الخلل الشائع في فهم كثير من الناس أن يُظنّ بأن العمل الصالح هو لحظة خاطفة من التدين المؤقت، أو حالة وجدانية موسمية، يمرّ بها الإنسان كما تمرّ عليه نوبات الحنين أو موجات

الانفعال؛ فإذا رقّ قلبه تصدّق، وإذا سمع موعظة بكى، وإذا أصابه خوف من الآخرة أقبل، ثم لا يلبث أن يعود إلى ما كان عليه من الفتور والتراخي والنسيان. لكنّ العمل الصالح في رؤية القرآن وأهل البيت عليهم السلام، ليس ردة فعلٍ عاطفية، ولا موقفًا عابرًا، بل هو مشروعُ حياة، وخطّ سلوكٍ ممتدّ، ومنهجٌ يوميّ دائم يتخلل تفاصيل الإنسان ويملأ حياته كلها من الجذور حتى الثمار.

إنه الترجمة اليومية للإيمان الحيّ، والبصمة العمليّة التي يُثبت بها المؤمن صدقه، والمرآة التي تنعكس فيها صورة ولائه الحقيقيّ لله، لا بمجرد الادعاء، بل بالفعل والالتزام. هو أن يعيش العبد مراقبة الله لا في المساجد فقط، بل في غرفته، وسوقه، وبيته، وأمام شاشة هاتفه. أن يطلب رضا مولاه في خلواته كما يطلبه في صلواته، وأن يرى الله ناظرًا إليه في كل حركة وسكون، فلا يُقدِم على أمرٍ إلا بميزان الشرع، ولا يترك شيئًا إلا بتقوى القلب، ولا يتخذ موقفًا إلا بنورٍ من ربه.

العمل الصالح هو تلك الصلوات التي تُؤدّى في وقتها عن شوقٍ لا عن عادة، بخشوعٍ لا بتثاقل، بحضور قلبٍ لا ترداد لسان. هو تلك الصدقة التي لا يُراد بها مدح الناس ولا تصوير في المجالس، بل يُقصد بها وجه الله خالصًا، وتُبذل في السرّ حين يكون الإخفاء أحبّ إلى النفس من الإعلان. هو تلك الكلمة التي تُقال حين يُخاف من قولها، لا حين يكون تكرارها آمنًا. هو النصرة الصامتة حين يصعب الكلام، والموقف الثابت حين تهتزّ المبادئ،

والنصيحة المخلصة حين تغيب المصلحة.

العمل الصالح هو تلك الدمعة التي تنزل حبًّا للحسين عليه السلام لا فقط حزنًا، وتلك الوجيعة التي تستقرّ في القلب كلما مرّ ذكر كربلاء، لا لمجرد التأثر العاطفي، بل لولادة إحساس بالمسؤولية. هو تلك السجدة التي تنتهي بذكر الإمام المهدي عجل الله فرجه، والدعاء له، والاستعداد لظهوره، والتضرّع لله كي يجعلنا من أنصاره، لا بلسانٍ جاف، بل بقلبٍ مشغولٍ به، وعقلٍ يفكّر فيه، وعملٍ يُمهّد له.

بل إن من أعظم صور العمل الصالح في عصرنا الحاضر، أن لا تكون متفرّجًا على ما يجري، ولا حياديًّا في لحظة الانحراف. أن لا تقف على رصيف الأحداث تراقب زحف الباطل، وتغضّ الطرف عن انهيار القيم، ثم تقول: «**ما شأني؟ وما دخلي؟**». فالتاريخ لا يُكتب بالمتفرّجين، والحقيقة لا ينصرها الساكتون. والحسين عليه السلام لا يزال يُنادي من أرض الطف: «**هل من ناصر؟**»، والمهدي لا يزال ينتظر منّا لا أمنيةً خاملة، بل خطوةً حيّة، وموقفًا صادقًا، وعملًا يُشبه الانتظار الحقيقي، لا مجرّد التمنّي.

العمل الصالح هو أن تُخرج الإيمان من التنظير إلى التطبيق، من الكتب إلى الحياة، من الشعار إلى القرار. هو أن تُثبت أنك من أهل الصدق لا بالكلام، بل بالعرق، بالمواقف التي تُؤلمك لكنها تُرضي الله، بالوقوف مع الحقّ وإن خذلك الجميع. من جمع بين إيمانٍ يملأ القلب، وعملٍ يملأ الواقع، فقد وطأ أولى درجات

النجاة، وتهيّأ ليصعد في مدارج الكمال، حيث المقامان الثالث والرابع: التواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

ثالثًا: التواصي بالحق، الجهاد الاجتماعي، وحمل الرسالة في وجه الانحراف

إن من أعظم الأمانات التي حمّلها الله عباده المؤمنين، وأشرف المهام التي كُلِّفوا بها في ميدان الحياة، أن لا يرضوا لأنفسهم بحالة الصلاح الفردي المنعزل، ولا يكتفوا بالنجاة الذاتية الصامتة، بل أن ينهضوا بمسؤولية الإصلاح، ويحملوا راية الحق على عواتقهم، ويمضوا بها في دروب العالم، ناصحين وهادين، ومجابهين لكل أشكال التحريف والانحراف، مهما كان الثمن.

لقد أراد الله للمؤمن أن يكون شعلة نور لا تنطفئ في محيطه، ولسان صدق لا يسكت عن الحق، وقلبًا حيًّا يغرس القيم في النفوس من حوله، ويوقظ الغافلين من سُباتهم، ويقف بشجاعة في وجه التيارات التي تسعى لطمس معالم الهُدى. فليس من الإيمان الحق أن يرى المرء الباطل يمدّ أذرعه في المجتمع، ويغتال الفضيلة جهارًا، ثم لا يحرّك ساكنًا، بدعوى أنّه منشغل بخلاصه الفردي. الإيمان الرسالي لا ينفصل عن الجهاد الاجتماعي.

وتأمّل في التعبير القرآني العجيب: «**التواصي بالحق**»، فهو لا يدلّ على توجيه فردي من أعلى إلى أدنى، ولا على نصيحة أحادية الاتجاه، بل هو تعبير عن فعلٍ متبادل، يعكس التفاعل الحيّ بين

المؤمنين، كأنّهم يتعاهدون فيما بينهم تعاهد المسافرين في صحراء موحشة؛ يخاف أحدهم على الآخر من أن يضلّ الطريق أو تزلّ به القدم، فلا يتركونه، بل يشدّون على يده، ويذكّرونه بالاتجاه، ويوقظونه إن نعس، ويواسونه إن خارت قواه.

هذا التواصي هو قوام الأخوّة الصادقة، وروح الجماعة الإيمانية، وحصن النجاة الجماعي. فكلّ نفس مؤمنة، مهما بلغت من التقوى، تبقى بحاجة إلى سند يثبتها حين تضعف، ومذكّر يعيدها إلى جادّة الصواب حين يغشاها غبار الدنيا، ورفيق لا يتركها وحدها في زحام الفتن. وهنا تتجلّى عظمة التواصي: إنه صورة من صور التكافل المعنوي، ووجه من وجوه الإصلاح الجماعي، وبُعد من أبعاد المناصحة المتبادلة، التي تحفظ للأمّة توازنها، وللمؤمنين طهارة قلوبهم وسلامة مسارهم.

وبهذا، يصبح التواصي بالحقّ ليس مجرد دعوة بلاغية، بل جهادًا مستمرًا، وقيامًا دائمًا على الثغور الأخلاقية، وسهرًا على سلامة القيم في مجتمعاتنا. إنه حملٌ للرسالة بكلّ ما فيها من مسؤولية وتحدٍّ، ومجابهةٌ واعية لكلّ ما يتهدّد الهُدى من باطل متخفٍّ أو ظاهر. فهنيئًا لمن جعل من التواصي سبيلًا للخلود، لا في الدنيا فقط، بل في سجلّات الفائزين يوم يُقال: ﴿**فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ**﴾.

التواصي بالحق: قمّة من قمم العبودية

ليس «**الحقّ**» في لغة القرآن مجرد مصطلح ذهني، أو فكرة مجرّدة تسبح في عالم المفاهيم الباردة؛ بل هو جوهر الهداية، وعنوان رضا الله، وصراط النجاة الذي من سار عليه بلغ الجنة، ومن تنكّبه هوى في دروب الباطل. إنه الكلمة التي تنقذ، والنور الذي يُبصر، والموقف الذي يوزن به الإيمان.

وحين يوصي المؤمن بالحق، فهو لا يردّده بلسانٍ خافت، ولا يطرحه بوصفه خيارًا هامشيًا، بل يحمله في قلبه كرسالة، وفي سلوكه كهوية، وفي كلماته كأمانة لا ينبغي كتمانها. التواصي بالحق هو أن تكون مواقفك صدى لما يرضي الله، لا لما يرضي الناس، وأن تضع رضا الرحمن فوق مجاملات المجالس، وأن تصدح به وإن ارتعدت الأصوات من حولك.

وكلّما استفحل الباطل في الأرض، وتحوّل إلى منظومات وأصوات وواجهات مغرية، كلّما صار التواصي بالحقّ فرضًا لا يسقط، وميزانًا دقيقًا يُعرف به المؤمن من المدّعي، والغيور من المتفرّج، والحيّ من الميت. إذ لا يكفي أن تؤمن بالحقّ في داخلك، ولا أن تعمل صالحًا في محيطك، إن كنتَ ترى الباطل يعيث فسادًا، والحق يُنسى أو يُشوه، ثم تمضي وكأن الأمر لا يعنيك.

فمن آمن، وعمل صالحًا، ثم سكت عن انحراف الناس، أو

جامل على حساب القيم، أو خاف من إعلان موقفه، فقد عطّل ركنًا من أركان النجاة. إن الإيمان حين لا يتمدد خارج حدود الذات، ولا يتحوّل إلى موقفٍ حيّ، يصبح ناقصًا، ويخبو نوره عند أول امتحان.

لهذا، كان التواصي بالحقّ قمّة من قمم العبودية، لأنه يُثبت أن الإيمان قد عبر من ضمير القلب إلى ساحات الواقع، وأن القلب الذي يخفق بحبّ الله قد رفض السكون في وجه الانحراف، واختار أن يكون جنديًا في جبهة الهداية، لا متفرّجًا في زمن التيه.

التواصي بالحق: تجذّرٌ في وجدان الأمة لا مرورٌ على هامشها

حين تتلو سورة العصر، تدرك أنها ليست مجرد إعلانٍ عن خطر الخسران، بل صرخة إنذار تُطلق في وجه الغفلة، لتنقذ الإنسان من السقوط في مهاوي الزمن. إنها لا تتحدّث عن خلاصٍ فردي ينقذ الإنسان وحده ويترك الآخرين، بل ترسم طريق نجاة جماعي، طريقًا لا ينحصر في «**الذات**»، بل يعبر إلى «**الآخر**» بصدق وحرارة. من هنا، يتجلّى «**التواصي بالحق**» لا كخيار هامشي أو خُلُقي عابر، بل كقلب نابض في جسد الأمة، وكأحد شروط النجاة، وسمة من سمات الأمة الحية الواعية.

فالمؤمنُ الذي يتواصى بالحقّ ليس إنسانًا يعيش على هامش الواقع، بل هو من يقتحم الساحة، يحمل همَّ الدين في قلبه، ويشعر بمسؤولية الانحراف كما يشعر بها في دمه، لا يسعه الصمت إذا

شُوّهت معالم الإسلام، ولا يرتضي الحياد حين يُلبَّس الباطلُ ثوبَ الحق، أو يُنتَزع الدين من جوهره ليُصبح قشورًا ميتة بلا روح.

هو الذي لا يمرّ مرورًا باهتًا حين يرى أُمّة محمد ﷺ تتنكّر لوصية الغدير، ولا يكتفي بالرثاء إذا رأى الصلاة تُؤدّى شكلاً بلا خشوعٍ ولا حضور. إنه لا يغضّ الطرف إذا خُنقت ولاية أهل البيت في الصمت، ولا إذا حوصرت معانيهم في الظلال، ولا إذا سُرق النور العلوي من القلوب، ثم سُمّي ذلك إسلامًا. إن من يتواصى بالحق لا يعرف الحياد إذا كان الحياد خيانة، ولا يلوذ بالصمت إذا كان الصمت جبنًا.

لهذا، فإن التواصي بالحقّ ليس مجرد تبادل وصايا عابرة، بل هو نَفَس الأمة حين تضيق أنفاسها، هو وقوف في وجه التيار، وصيحةٌ في وادي الصمت، وبيانٌ في زمن الالتباس. ومضامينه تتسع وتشمل:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: لا بوصفه قانونًا جافًا أو واجبًا ثقيلًا، بل بوصفه نداءً داخليًا ينبض بالحياة، حاجةً روحيّة تعني أن الأمة لا تزال تنبض، ولا تزال تحتفظ بأشواقها للحق والخير.

الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة: فلا مكان للغِلظة والتعالي في طريق الدعوة، بل هي دعوة محبة، دعوة مَن يرى في الآخر أخًا ضائعًا لا خصمًا، دعوة مَن يحرص على القلوب لا مَن

يُحصي الزلّات، دعوة بلغة القرب لا التهديد.

الوفاء لقيم الرسالة، وروح كربلاء: إذ لا يمكن للتواصي بالحق أن يُفصل عن الحسين عليه السلام، ولا أن يُفصل عن صرخته في كربلاء، فالتواصي هو إعادةُ بعثٍ لكربلاء في الوجدان، هو أن لا نترك عاشوراء حبيسة التاريخ، بل نُحييها كلما سمعنا منكرًا، أو رأينا الحق يُغتال في وضح النهار.

التمسّك بالولاية: لأن الحق لا يُفهم خارج إطار عليّ وآله، ولأن البوصلة التي دلّت الأمة في أول التيه لا تزال هي ذاتها، فمن شاء أن يعرف الحق، فليلتمسه حيث دار عليّ، فالحق مع عليّ لا ينفصل، بل هما روحان في جسدٍ واحد.

في نهاية المطاف، فإن التواصي بالحقّ ليس شعارًا يُرفع، بل حياة تُعاش. هو منتهى الحبّ للدين، وصدق الانتماء، وعمق البصيرة. هو أن نرفض الصمت حين يكون الصوت حقًّا، وأن نحمل نور الحقيقة ولو في دروب الظلمة. فبه تُبعث الأمة من رمادها، وبه تُحفظ الرسالة من التآكل، وبه يُصان الوعد الذي حمله الأنبياء والأوصياء.

التواصي بالحقّ في مدرسة الحسين عليه السلام والمهدي عجل الله فرجه

إذا أردنا أن نبحث عن أبهى تجلٍّ للتواصي بالحقّ في صفحات التاريخ، فلن نجد مشهدًا أصدق ولا أعمق من يوم عاشوراء.

فالحسين بن عليّ عليه السلام لم يكن مجرّد ثائر خرج على سلطان جائر، بل كان الوصيّ الأعظم على الحق، والشاهد الأبقى على رسالة النبي، والامتداد الصادق لخطّ السماء. حمل الحسين عليه السلام على عاتقه أمانة التوحيد، وخرج لا ليطلب سلطانًا، بل ليُقيم الحُجّة على الناس، ويُوقظ الضمائر من سباتها. لقد آثر أن يُذبح، ولا يُذبح الدين، وأن يُقتل، ولا يُقتل الحق.

كان بإمكانه أن يصمت كما صمت كثيرون، أن يعتزل كما اعتزل المتخاذلون، لكنه اختار طريق الأنبياء: طريق المواجهة بالدم، والصمود حتى آخر نفس. لقد آمن أنّ التواصي بالحق ليس مجرد كلام يُتداول، أو شعار يُرفع، بل هو سلوك تُدفَع لأجله الأرواح، ووصيّة لا تموت. ولهذا، لم تكن معركة كربلاء ساحة صراعٍ سياسي، بل كانت ميدانًا لتأسيس أمة لا تموت ما دامت تتواصى بالحقّ.

ففي خضمّ أهوال عاشوراء، وبين كل صرخة ووصيّة ووداع، كان الحسين عليه السلام يغرس في أهل بيته وأصحابه بذر التواصي بالحقّ. لم يكن يُوصي فقط بالكلمات، بل بالجراح والدموع والسكينة. أوصى زينب صلوات الله عليها بأن لا تستسلم للحزن، ولا تترك رسالة الدم تذبل، بل تكون لسانًا ناطقًا لثورة الحسين عليه السلام. أوصى عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام بالدور من بعده، أن يحمل مشعل الهداية في زمن الذلّ والمرض والسبي. بل أوصى الأرض أن تحفظ دمه، والسماء أن لا تنسى صرخته،

والزمان أن يبقى شاهدًا عليه إلى يوم الظهور. لقد تحوّلت كربلاء كلها إلى وصيّة حيّة، وإلى مدرسة أبدية للتواصي بالحقّ، لا تموت ولا تنطفئ.

وإذا كان الحسين عليه السلام هو بطل البداية، فإن القائم من آل محمد (عجّل الله فرجه الشريف) هو خاتمة المسير، وثمار الدم، وبزوغ الحق في أتمّ صوره. فالمهدي المنتظر عجل الله فرجه هو التجلّي الأكمل للتواصي بالحقّ، لأنّه لا يأتي إلا ليُقيم الحقّ على أنقاض الباطل، ويُحيي العدل في أرض أماتها الظلم، ويُعيد الدين كما أنزله الله، نقيًّا طريًّا بلا تحريف. سيكون نداؤه نداء الحسين عليه السلام، ومنطقه منطق عليّ عليه السلام، ومشروعه امتدادًا لكل وصيّة سُفكت لأجلها الدماء.

وحين يظهر، فإن أولياؤه الحقيقيين لن يكونوا أولئك الذين اكتفوا بصلاح أنفسهم، أو تقوقعوا في زوايا الصمت، بل أولئك الذين تعلّموا من كربلاء أنّ الحق لا يُترك، وأن الحياد خيانة، وأن المجاملة في زمن الانحراف شراكة في الجريمة. الذين ربّوا أنفسهم على الصدع بالحق، وإن كلفهم ذلك خسائر، ودرّبوا ضمائرهم على ألا تسكت، وألا تساوم، وألا تغيب عن ساحة الأمة.

فالتواصي بالحقّ، في مدرسة الحسين عليه السلام والمهدي عجل الله فرجه، ليس رفاهًا روحيًّا، بل تكليفٌ إيماني، وموقف رسالي. هو علامة الحياة في الأمة، وبوصلة الهداية، وحصنها من الفتنة، وسلاحها في وجه الباطل. هو النداء الذي لا ينقطع، والعهْد الذي لا يُنسى،

وهو البُعد الجوهري الذي ارتكزت عليه سورة العصر في مشروع النجاة. فمن دون التواصي بالحق، لا تنهض أمة، ولا يُحفظ دين، ولا يُنجّي الإيمانُ أهله من الخسران.

إنه نداءُ الحسين عليه السلام في كلّ زمان، وراية المهدي عجل الله فرجه التي سترتفع، فهل نحن من أهلها؟ هل نحن من المتواصين بالحق، أم من الصامتين؟ هل نربي أبناءنا على التبليغ والنصيحة، أم على الحياد والتردد؟ هل نحن أمناء على كربلاء، أم من الغافلين عنها؟ هذا هو السؤال... وهذا هو الامتحان الذي لم ينتهِ بعد.

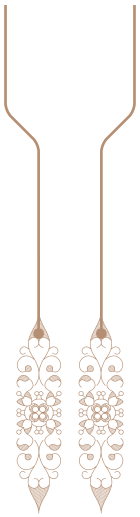

رابعًا: التواصي بالصبر – الثبات في ميدان الامتحان

وعصب النجاة في معركة الظهور

إن الصبر في منطق القرآن ليس مجرد احتمال مرّ للشدائد، ولا مجرّد تَحمّل صامت للابتلاءات، بل هو قوّة فاعلة، وقرار داخليّ نابع من نور اليقين، يُبقي الإنسان في ساحة المواجهة حين يتساقط من حوله الضعفاء، ويثبّت القدم حين تزلّ أقدام الآخرين. الصبر هو حالة من الوعي النقي، يرفض الانهيار أمام الضغط، ويقاوم الانكسار أمام الظلم، ويصرّ على البقاء في الخطّ الإلهي حتى آخر نفس، مهما اشتدّت التكاليف، وتكاثرت الفتن، وتعقّدت الطريق.

ولأجل ذلك، لم يكن الصبر فضيلةً جانبيةً في منظومة الإيمان، بل هو أحد أركانها المحورية. ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان.**»

وقد أكّد القرآن هذه الحقيقة في عشرات الآيات، فجعل الصبر شرطًا في الإمامة، كما في قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ**

بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (١).

وفي آية أخرى، يجعل الله الصبر والمغفرة من عزم الأمور، أي من الأصول الكبرى التي لا تستقيم الرسالة ولا الرسالية إلا بها: **﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾** (٢).

والصبر في القرآن ليس فقط شرطًا للنصر، بل هو مفتاح معية الله عزّ وجل، كما قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾** (٣).

وسورة العصر حين تختم آياتها بذكر «**التواصي بالصبر**»، فإنما تضع هذا التواصي في موقع الحارس الأخير، والدرع النهائي، الذي يقي المؤمنين من السقوط، ويُثبّتهم على ما آمنوا به وعملوا له وتواصوا فيه. فالإيمان، مهما بلغ صفاؤه، والعمل الصالح، مهما سمت نيّته، والتواصي بالحق، مهما علا صوته، كلّها تبقى مهددة بالضياع والانطفاء، إن لم تُحَط بجدار الصبر، وتُغذَّى بروحه، وتُحمى بثباته.

وقد بيّن القرآن أن طريق الصبر محفوف بالمكاره، لكنه وحده المفضي إلى الفوز، كما في قوله تعالى: **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا...﴾** (٤).

السجدة: ٢٤
الشورى: ٤٣
البقرة: ١٥٣
البقرة: ٢١٤

إنّ التواصي بالصبر، بهذا المعنى، هو عقدٌ جماعيّ في قلب الأمّة، يربط أفرادها بعضهم ببعض في وجه التراجع، ويخلق تيارًا من الثبات يقاوم كلّ عوامل الانهيار. هو أن يُذكّر بعضهم بعضًا، عند لحظة الضعف، بأننا لسنا أوّل من ابتُلي، وأن طريق الله ليس مفروشًا بالورود، وأن الحقّ لا ينتصر بالسرعة، بل بالصبر الطويل والمواقف الثابتة.

وفي معركة الظهور، سيكون الصبر هو عصب النجاة. فزمن الانتظار ليس زمنًا خامدًا، بل زمن الصبر الأشدّ، زمن الامتحان الطويل، والمجاهدة اليومية، والبقاء على العهد دون أن نعلم موعد الفرج. المنتظِر الحقيقيّ هو من صبر قلبه على الغيبة، وصبرت جوارحه على المعصية، وصبر عقله على الفتن، وصبر موقفه على ثقل الصدع بالحقّ.

ولأجل هذا جاء قوله تعالى في وصف المنتظرين الصادقين الذين يُمهّدون للظهور: ﴿**وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ... أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾[1].

وإذا ظهر القائم عجل الله فرجه، فلن ينهض معه المتعجّلون، ولا أصحاب النفوس المترهّلة، بل أولئك الذين تمرّنوا طويلًا على الصبر، وتواصوا به، وتعلّموه من الحسين عليه السلام في صبره، ومن زينب عليها السلام في وقفتها، ومن السجّاد عليه السلام في محنته، حتى صار الصبر عندهم خلقًا أصيلًا، لا ظرفًا طارئًا.

الرعد: ٢٢-٢٤

﴿فَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ (١)

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾ (٢)

هكذا فقط يُصنع الثبات... وهكذا فقط يُؤهّل الإنسان ليكون جزءًا من مشروع الظهور، وشريكًا في إقامة العدل الإلهي.

التواصي بالصبر: المقاومة الداخلية أمام التحديات الخارجية

كثيرًا ما يبدأ المؤمن طريقه نحو الله بحماسةٍ صادقة، وعزيمةٍ ملتهبة، وإرادةٍ مخلصة، يحمل في قلبه نور الإيمان، وفي عقله وعي الرسالة، وفي ضميره توقٌ للحقّ والعدل. لكنه ما إن يخطو الخطوات الأولى في درب الإيمان والعمل والدعوة، حتى تنهال عليه التحديات من كل صوب، وتتكاثر أمامه العقبات التي لم يكن يحسب لها حسابًا.

يُفاجأ بأنّ الطريق ليس معبّدًا كما كان يتصور، بل هو طريق تنفث فيه الفتن سمومها في العقول والنفوس، وتنهش فيه الألسن الطاعنة، وتضجّ فيه العيون المتربّصة، وتنتشر فيه الإغراءات الناعمة التي تدعو إلى الخمول، والتبريرات الذكية التي تزيّن الركون والسكوت. يرى القلوب تُجحد، والأقربين يُكذّبون، والأعداء لا يهدأ لهم بال في التشويه والمكر والتشكيك.

---

(١) المعارج: ٥
(٢) النحل: ١٢٧

في هذه اللحظات القاسية، لا يعود الصبر خيارًا ترفيًّا يُمارسه من شاء، بل يصبح ضرورةً وجوديّةً لاستمرار المؤمن في المسير. فبغير الصبر، تسقط العزائم، وتخور القلوب، ويُبتلع الإنسان في رمال التراجع والضياع.

وقد قال تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ**﴾ (١)

تذكير بأنّ الصبر ليس جهدًا ذاتيًّا صرفًا، بل هو مدد من الله، لا يثبت عليه إلا من استعان بربّه.

غير أنّ الصبر هنا لا يُطلب كفضيلة فردية فحسب، بل يُفهم كما أراده الله في سورة العصر: «**تواصٍ بالصبر**». أي أن المؤمن لا يُترك وحيدًا في مواجهة الانهيار الداخلي، بل يجد في إخوته في الله من يُذكّره، من يُمسك بيده، من يناديه في اللحظة الحرجة: اثبت، لا تنسَ لِمَ خرجت، لا تُعطِ ظهرك، لا تتخلَّ عن العهد.

فالتواصي بالصبر هو أشبه بنداء جماعيّ في ميدان المعركة، نداء يُطلقه الصفّ في وجه الضعف، يُذكّر كل فرد بسبب وجوده، ويبعث في روحه الحياة حين توشك أن تخبو. هو أشبه بمناداة الرفاق بعضهم بعضًا في وسط الزحام: لا تهرب، نحن معك، لم ننتهِ بعد، لا يزال أمامنا الطريق.

ومن هنا ندرك أن التواصي بالصبر ليس مجرد تذكير خفيف، بل هو صيانة جماعية للمسار الإيماني، يقوم على التعاهد

---

(١) النحل: ١٢٧

والتكافل، وعلى أن يحمل كل مؤمنٍ غيره، ويُثبّته، ويقيه من السقوط النفسي، ويمنع عنه عدوى الانهزام والخذلان. هو شبكة من الحماية الروحية التي تمنع العزيمة من التآكل، وتمنع الهزيمة من التسلل إلى داخل القلوب.

وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى حين قال: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ (١)

إشارة إلى أن الصبر لا يُصان إلا بتذكيرٍ دائم، وعهدٍ متبادل بين المؤمنين.

فإذا كنا نعيش في زمن تتكاثر فيه الفتن، وتتراجع فيه المبادئ، وتغري فيه الدنيا بألوانها، فإننا أحوج ما نكون إلى «**التواصي بالصبر**» لا كمفردة وعظيّة، بل كممارسة يوميّة جماعية، نعيشها في بيوتنا، ومساجدنا، ودوائرنا، ومجتمعاتنا. نُذكّر بعضنا بعضًا أن الطريق لم ينتهِ، وأن المشروع لم يُنجز بعد، وأن الظهور ينتظر رجالًا لم تضعف قلوبهم، ولم تفتر ألسنتهم عن الصبر، ولم يتخلّوا عن بعضهم ساعة الشدّة.

هذا هو التواصي بالصبر...

درعُ الجماعة في وجه الخيبة، وصوتُ العزم في زمن الانهزام، وروحُ الثبات في لحظة الانكسار.

العصر: ٣

التواصي بالصبر: العمق الروحي لمواجهة الابتلاء

الحياة في جوهرها ليست ملعبًا للراحة، ولا نزهةً للمتنعّمين، بل هي دار ابتلاء، وساحة امتحان متجدّد، ووطن للفتنة التي تتسلّل بأشكالها المختلفة إلى النفوس والعقول والقلوب. وهذا هو التصوّر القرآني الصريح الذي يكشف عن حقيقة الوجود الإيماني. إذ يقول الحقّ سبحانه: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**﴾ [1]. وكأن الآية تهزّنا من الداخل، لتقول: لا يكفي أن تقول «**آمنت**»، فالإيمان لا يُعلن باللسان فقط، بل يُثبت في ساحة الامتحان، ويُختبر في مواقف الشدّة، ويتجلّى في اللحظة التي لا يبقى فيها شيءٌ سوى الثبات على العهد.

ومن هنا، فإن الصبر لا يُمكن النظر إليه كخيار مؤقّت يمارسه الإنسان في ساعات الضيق ثم يخلعه في أوقات الراحة، بل هو نهج دائم، وموقف وجودي، ووعي مستمرّ بأن الحياة لا تهدأ، وأن الامتحانات لا تنقطع، وأن الفتنة تتجدد في كل جيل وزمان. ولعلّ من أطول الفتن وأشدّها امتحانًا، تلك التي تمرّ بها الأمة في غيبة الإمام القائم من آل محمد (عجّل الله فرجه الشريف)، فليست الغيبة مجرد غياب لشخص، بل هي اختبار لعقيدة، ومِحكّ لصبر، وتمحيصٌ لإيمانٍ طويل النفس. إنها فتنة تطول معها الأيام، وتتوالى فيها القرون، ويضطرب فيها الناس بين من ينتظر بصدق، ومن يملّ ويضجر، ومن يُبدّل ويشكّ، ومن يرفع راية الدين ليذبح الدين.

العنكبوت: ٢

في هذا الزمن الطويل، كم من النفوس ملّت، وانسحبت من الساحة وهي تقول: إلى متى؟ وكم من العقول ذهبت إلى الشكّ، وتاهت في متاهات التأويل الباطل؟ وكم من القلوب استثقلَت الانتظار، وبدأت تبحث عن بدائل عاجلة، حتى وإن كانت على حساب المبادئ؟ وكم من الرايات ارتفعت باسم أهل البيت عليهم السلام، ثم إذا بها تجرّ الأمة إلى هاوية التسلّط والانحراف؟ هنا تمامًا، كان الناجون هم الذين صبروا، ولكن ليس الصبر العابر، بل الصبر الممهور بالوعي، والصبر المعبّأ بالشوق، والصبر المربوط بالثقة المطلقة في وعد الله، والصبر الذي لا يستمدّ طاقته من العادة، بل من التواصي.

ذلك التواصي الذي يحوّل الصبر من مجرّد حالة فردية إلى شبكة جماعية من التثبيت والتعاضد، ذلك التواصي الذي لا يترك المؤمن وحيدًا أمام تعب الطريق، بل يُذكّره كلّما كاد أن يضعف، أنه ليس وحده، وأن الطريق ما زال، وأن النصر آتٍ، وأن الغائب حاضر بنوره، وإن غاب بشخصه. فكان الذي صبر، هو من صبر على طول الانتظار دون أن تنطفئ في قلبه شعلة الشوق، من ظلّ يحدّق في الأفق لا ليسأل متى، بل ليقول: أنا على العهد. هو من صبر على ظلم الزمان، ولم يُسلِم قلبه لليأس، بل كان يرى في كلّ ظلمة فجرًا يتشكّل. هو من صبر على قلة الأنصار، فلم تغرِه كثرة المتخاذلين، بل ازداد يقينًا بأن القلّة المخلصة أحبّ إلى الله من الكثرة الهائمة. هو من صبر على غياب القائد الظاهر، ولم تغب

عنه الولاية، بل كان يشعر بحضوره في وجدانه وسلوكه ودعائه. هو من صبر على الطريق الموحش، ولم يبحث عن اختصارات تحرّفه عن جادة الصدق، بل بقي متمسّكًا بالثوابت، وهو يعلم أنّ الله لا يُضيع من انتظر بصدق.

هذا هو الصبر الذي يحبّه الله، كما في قوله: ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾[1]، وهو الصبر الذي لا يُمكن أن يصمد إلا إذا صار خلقًا متواصًى به بين المؤمنين، إذا صار ثقافةً جماعية، وتربيةً روحيّة، وتعهّدًا متبادلًا بأننا لن نترك بعضنا، ولن نترك الإمام، ولن نترك الطريق، مهما طال البلاء.

التواصي بالصبر في مدرسة الحسين والمهدي عليهما السلام

إن أردنا أن نتلمّس حقيقة «**التواصي بالصبر**»، فلن تجد أصدق من كربلاء مدرسة حية تنطق بصوت الصبر، تحكي قصة رجال ونساء عاشوا لحظات ليست ككل اللحظات، حين تلاقت قلوبهم على قرار ثابت لا يلين، حين وقفوا في وجه الموت والظلم بسواعد لا تضعف، وأرواح لا تنكسر.

تخيّل ذلك المشهد: الحسين عليه السلام في قلب المعركة، لا يقتصر دوره على حمل السلاح والدعوة للحق فقط، بل كان المعلم والقدوة، والمُلهِم الذي يزرع في أصحابه قوة داخلية لا يمكن لأي قصف أو تهديد أن يفتتها. في لحظات الضعف والوجع،

---

[1] آل عمران: ١٤٦

كان يرفعهم إلى مستوى آخر من الفهم والرضا، ينقلهم من حالة الخوف والجزع إلى مرحلة الرضى بالقضاء، والثقة بنصر الله، حتى صار الألم يُحتمل، وصار الموت مرغوبًا أعظم من أي لذة دنيوية.

تلك اللحظة التي يقول فيها الصغير القاسم عليه السلام لعمه «**الموت فيك أحلى من العسل**» ليست كلمات طفولية عابرة، بل تعبير عميق عن روح تَخلّت عن خوف الحياة، واحتضنت حقيقة التضحية من أجل الحق. نفس الروح التي كان يحملها الشيخ زهير بن القين، الذي مهما اشتدّت عليه المآسي، قال بصراحة عجيبة: «**والله لو قُتلت ثم نُشرت، ثم قُتلت ثم نُشرت، يُفعل بي ذلك ألف مرة، لما تركتك**». هذا الصبر ليس فقط قبولًا بالمصير، بل هو اختيار واعي متجدد، هو إيمان يستنهض الذات من تحت الركام، ليعيدها إلى دائرة النضال.

هنا في كربلاء، كان الصبر يتقاسم نبضه كل من وقف، ويتشارك به كل من احتسب. لم يكن مجرد تحمل أو انتظار سلبي، بل كان أسمى درجات الثبات، وقمة الوعي الروحي، وعزيمة لا تعرف التراجع.

وهكذا، تحولت كربلاء إلى مدرسة لتواصي الصبر، حيث يصبح الإمام الحسين عليه السلام رمزًا للثبات والرضا، والعائلة العلوية مثالًا للاحتساب، والدماء التي رُشّت على الأرض وثيقة تواصل أبدية مع كل من يحنّ إلى الحق، ويقف بوجه الظلم.

في زمن الغيبة، الذي ربما يزيد من طول الطريق وقسوة الانتظار، يستمر هؤلاء الصابرون على دينهم، كأنهم يُقبضون على جمر متوهج لا يخمد، ولا يُطفئ حرارة انتظارهم، ولا ينطفئ حماسهم للقاء القائد المنتظر.

قال الإمام الصادق عليه السلام في وصف هؤلاء: «**من مات منكم على هذا الأمر منتظرًا له كان كمن كان في فسطاط القائم عجل الله فرجه**»، أي إن الصبر والانتظار الصادقين يصنعان حالة إيمانية استثنائية، تمنح المؤمنين منزلة خاصّة قرب القائد والحق.

ولذلك، لا يُقال عن هؤلاء فقط إنهم مؤمنون، بل إنهم «**صابرون**»، صامدون في وجه الرياح العاتية، غير متزعزعين ولا منحنين، وهم في كل لحظة يذكّر بعضهم بعضًا بأن الطريق هو الحق، وأن الفرج قريب، وأن صوت الحسين ينادي في الضمائر، وأن المهدي المنتظر آت لا محالة.

إن التواصي بالصبر في هذه المدرسة ليس كلامًا يُقال، بل هو حياة تُعاش، وقوة متجددة في عروق الأمة، وعصب النجاة الحقيقي في زمن الغيبة. هو الروح التي لا تنطفئ، والضمانة الأخيرة للصمود في وجه الإعصار المتلاطم من الفتن، الذي يهدد القلوب والعقول.

هذا الصبر ليس مجرد تحمل للشدائد، بل هو صبر مُتوارَث بين الأجيال، يغذّيه الدعاء المستمر، ويرعاه الوعي الديني العميق،

ويزهر بدماء الشهداء الذين ضحوا في سبيل حفظ الدين، ويتشابك مع الشوق الدائم إلى الفجر الموعود، ذلك الفجر الذي يحمل رجاء الانتصار الكامل والعدل الإلهي.

الباب الخامس:
خلاصة الأربع المنجيات

- أولًا: الإيمان – البذرة التي تنبت فيها الحقيقة.
- ثانيًا: العمل الصالح – ثمرة الإيمان وتجسيده في الواقع.
- ثالثًا: التواصي بالحق – تحمّل الرسالة في ميدان الأمة.
- رابعًا: التواصي بالصبر – الحصن الحصين في زمن الفتنة.

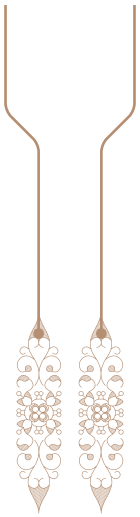

﴿وَالْعَصْرِ﴾: مشروع النجاة بين الإيمان والانتظار

حين يُقسم الله بشيء، فهو لا يُقسم عبثًا، ولا يستحضر الموجودات عبورًا، بل يُسدل الستار عن سرٍّ دفين في الكون، ويفتح نافذةً على معنى جليل يتجاوز السطح والعادة. وهنا، لم يكن القسم مجرّد حلفٍ بالزمن، بل كان إشارةً مُوقظة إلى «**العصر**» بصفته زمانًا مفصليًا، حادّ الزوايا، تتراكم فيه الأحداث كما تتراكم الغيوم قبل العاصفة، وتتفجّر فيه المحن كما تتفجّر البراكين في باطن الأرض. إنه العصر الذي يُصفِّي البشرية في غربال الفتنة، ويضع النفوس في محكٍّ عسير، لتتكشّف معادنها، ويُفرَز فيها الإنسان: أيكون من أهل البصيرة أم من أسرى الغفلة؟ من أبناء النور أم من ضحايا التيه؟

فليس «**العصر**» هنا مجرد لحظة زمنية تمرّ وتنسلّ كما تنسلّ خيوط الضوء في الغروب، بل هو زمان التمايز، وعصر الاصطفاء، وساحة الغربلة الكبرى. أقسم الله بهذا الزمن لأنه تجلٍّ صريح للامتحان الإلهي، حيث تتواجه القيم وتتصادم المشاريع، وحيث

يُختبر صدق الإنسان لا بشعاراته، بل بمواقفه، لا بما يدّعي، بل بما يصنع، في غمار التدافع بين الحق والباطل، وبين الثبات والانهيار.

ثم يأتي البيان الإلهي الجازم: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، وكأنّ الآية تصفع الغفلة، وتعلن عن حقيقة مُرّة لا يجدي معها التجاهل: الإنسان بطبعه مُعرض للخسران، مُنقاد نحو السقوط، ما لم يتداركه نور الإيمان والعمل والدعوة والصبر. إنها قاعدة كونية: الأصل هو الخسر، والاستثناء هو النجاة.

وهذا الاستثناء الرباني ليس أمنية تُرجى، بل مشوار يتطلب اجتيازًا لأربعة أركان لا يغني أحدها عن الآخر: الإيمان الحقّ الذي يُشعل الروح، والعمل الصالح الذي يترجم الإيمان إلى حركة، والتواصي بالحق الذي يبني الأمة، والتواصي بالصبر الذي يحميها من الانهيار في زلزال الفتن. بهذا الترتيب، تُرسم خارطة النجاة، ويُبنى مشروع الإنسان الذي يريد أن ينجو لا وحده، بل ومعه الآخرون، في روحٍ جماعية لا تقبل بالانعزال.

من أراد النجاة، فليعلم أن المعرفة وحدها لا تكفي، وأن الإدراك لا يُغني إن لم يتحوّل إلى إيمان، وأن الإيمان بلا عملٍ كجذوة انطفأت، وأن العمل إذا لم يتحوّل إلى دعوة فهو قاصر، وأن الدعوة إذا لم تُحمَ بالصبر، سقطت في أول اختبار. إنها درجات في سلّم العروج، وحلقات في سلسلة النجاة، تبدأ من وعي القلب وتنتهي بثبات الروح في وجه العاصفة.

وهكذا تبدأ سورة العصر، كأنها جرس إنذار، وتُختم كأنها خريطة عبور، تصف رحلة الإنسان من الخسران إلى الفوز، من التفلّت إلى الالتزام، من التيه إلى الهداية. رحلة تصاعدية لا يُدركها إلا من نظر إلى الزمن لا كرقم، بل كرسالة، ولا كعمرٍ يُعدّ بالأيام، بل كميدانٍ تُصنع فيه المواقف، وتُختبر فيه القلوب، وتُكتب فيه فصولُ المصير.

أولًا: الإيمان – البذرة التي تنبت فيها الحقيقة

الإيمان ليس فكرة تُعلّق في الذهن، ولا قناعة ذهنية تجلس على رفّ العقل، بل هو الجذر الأول الذي ينغرس في تربة القلب، ويُغذّي كل ما ينمو في الإنسان من وعي وموقف وسلوك. هو البداية التي منها تنبع كل النهايات، والنقطة التي عندها يُولد النور في الظلمة. الإيمان هو الشعلة التي لا تُطفئها عواصف الشكّ، ولا تنال منها ظلمات العصر، لأنه لا يُستمدّ من الناس، بل من الله، ولا يتكئ على المنطق البشري وحده، بل على كشفٍ ربّاني يلامس شغاف القلب.

إنه ليس مجرد تصديق بأن هناك خالقًا وسماوات، بل هو حياة تُستعاد، ومسيرة تُبنى على اليقين، لا على الظنون. الإيمان الصادق هو ما يربط الإنسان بالله ربطًا لا تنفصم عُراه، في كل حال، في الضراء والسرّاء، في الفقد والمنحة، في الخوف والسكينة. هو استقامة في الباطن، تُثمر استقامة في الظاهر. هو ما يجعل الإنسان يرى ما لا تراه العيون، ويسمع ما لا تلتقطه الآذان، لأنّ فيه نورًا

يتخطّى الحواس إلى مقام البصيرة.

وليس الإيمان الذي تُريده سورة العصر هو الإيمان العامّيّ أو الموروث الذي يتناقل بين الألسن، بل هو إيمان معرفيّ، واعٍ، مؤصّل، يمرّ عبر أبواب التوحيد الخالص، ثم يعانق النبوة الحقّة، ويستظلّ بظلّ الولاية الإلهية، ويؤمن بالرجعة كما يؤمن بالبعث، ويثبت على الانتظار كما يثبت على الصلاة. لا يكتمل إلا إذا كان منتميًا إلى العقيدة بكامل أركانها، حاضنًا لوعد الله ووعيده، مترقبًا للظهور بوصفه وعدًا لا وهمًا، وموعودًا لا خيالًا.

ومن هنا، فإن أول معارج النجاة يبدأ من إعادة تعريف الإنسان لنفسه، ولانتمائه، ولحقيقته، على ضوء الإيمان الحق، لا على ضوء العرف الثقافي أو التديّن الاجتماعي الذي قد يكون زائفًا في عمقه. إن الإنسان لا يستطيع أن ينجو وهو يعيش بإيمان هزيل، هشّ، مؤقت، يتغيّر مع الفصول، ويتبدّل مع المصالح. لا ينجو إلا من بنى إيمانه على الصخر، لا على الرمل، وعلى الوحي، لا على هوى الناس.

فالنجاة، في جوهرها، ليست انعزالًا جسديًا عن الفتن، بل هي وقوف روحي ثابت في قلبها، بنور الإيمان الذي لا يخبو، وسكينة اليقين التي لا ترتجف. إنها إعادة بناء للذات من جديد، على أساس نورانيّ صلب، يجعل الإنسان في كل لحظة، في كل امتحان، في كل فتنة، يختار الله، لا ذاته، ويختار الحق، لا الراحة، ويختار البقاء في صفّ المهتدين، مهما تغيّرت الوجوه وادلهمّت الخطوب.

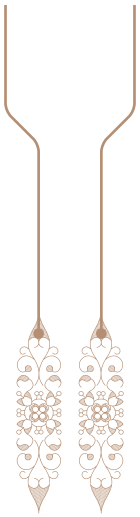

ثانيًا: العمل الصالح – ثمرة الإيمان وتجسيده في الواقع

الإيمان إذا بقي حبيس الصدور، مغلّفًا بالشعارات، غير ماثل في السلوك، أشبه ما يكون ببذرة دفنت ولم تُسقَ، أو بنورٍ وُضع تحت غطاء كثيف لا ينفذ منه شعاع. إن الإيمان لا يُولد كاملًا، بل ينمو، ويتحوّل، ويتجسّد، فإذا لم يتحوّل إلى عمل، إلى أثرٍ يُرى، وموقف يُلمس، ومشاريع تُشيّد، فإنه يذبل في باطن الإنسان حتى ينطفئ، ولو ظنّ صاحبه أنه ما زال على العهد.

ولذلك، فإن العمل الصالح ليس شيئًا زائدًا على الإيمان، بل هو امتداده الطبيعي، وتعبيره الصادق، وتجليّه في الخارج. إنه الإيمان وهو يمشي على الأرض، ويطرق الأبواب، ويخوض الحياة، ويثبت أمام الابتلاء. فكما أن القلب يُصدّق، فإن الجوارح تُترجم، وكلّ ما لا يُترجم، مهدّدٌ بأن يكون وهمًا لا حقيقة.

العمل الصالح هو الصلاة التي تُؤدّى بخشوع، والزكاة التي تُخرج بمحبة، والصدق الذي يُقال ولو على النفس، والإحسان الذي يُبذل في السرّ والعلن، والجهاد الذي يُخاض في ميدان النفس

قبل ميادين العدو، وهو أيضًا حسن الخُلق، ولين الجانب، وصبر المجاهدين، وسهر المخلصين، وتفاني السائرين في درب الحقّ. هو كلّ تفصيل صغير أو كبير تُقام به القيم، وتتجلى به عبودية الإنسان لله في ساحة الواقع.

وما أكثر الذين آمنوا ثم لم يعملوا! وما أكثر من امتلكوا قائمة معتقدات مكتوبة في رؤوسهم، دون أن تتحول إلى حياة. وما أكثر الذين يعملون ليل نهار، لكن على غير هدى، بلا إيمانٍ يوجّه، ولا وعيٍ يهدي، ولا نيةٍ لله تُبارك المسير. وكلا الطرفين – المفرّط في العمل، والمجرد عن الإيمان – خارج دائرة النجاة كما رسمتها سورة العصر.

ففي المنظور القرآني، لا يُبنى الخلاص على دعوى منفصلة، بل على تركيبة مترابطة: إيمانٌ يغذّي العمل، وعملٌ يُبرهن على الإيمان. لا أحد منهما يُغني عن الآخر، ولا يجوز أن يُختزل الدين في أحدهما دون الثاني. فالمؤمن الحقيقي لا يكتفي بأن يعتقد، بل يسعى، ويتعب، ويُجاهد، ويبني، ويصلح، ويُقيم صرحًا للحق في حياته، مهما صغرت الأدوات أو عظمت المهام.

العمل الصالح هو الوجه العمليّ للإيمان، وهو الدليل على أنّ ما في القلب حقيقيٌّ لا دعوى، وأنّ ما في العقل ليس مجرّد تأمل، بل التزام. وبهذا يُمتحن صدق الإنسان، لا بما يقول، بل بما يفعل، لا بما يتمنّى، بل بما يبذل. فإذا صلح عمله، دلّ على أنّ البذرة في قلبه حيّة، وأن الإيمان الذي استقرّ في صدره ليس زيفًا، بل شجرة طيبة تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها.

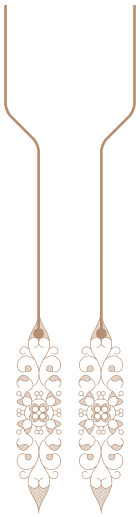

ثالثًا: التواصي بالحق – تحمّل الرسالة في ميدان الأمة

حين يُؤمن الإنسان بحق، ويُجسّد إيمانه في عملٍ صالح، فليس له أن يكتفي بنجاة ذاته، كأنّ الدين مشروع فرديّ مُغلق، أو نجاة شخصية أنانية. الإيمان إن صدق، لا يعرف الانكماش، والعمل إن صفا، لا يرضى بالبقاء في الظلال. إن مشروع النجاة لا يكتمل إلا حين يخرج الإنسان من حدود ذاته، ليحمل ما آمن به إلى غيره، وليُصبح صوته صوتًا للحق، وخطاه خطوة في طريق إصلاح الأمة. فالتواصي بالحق هو الامتداد الرساليّ للإيمان، وهو الوجه الجماعي للعمل الصالح، وهو الانخراط الواعي في همّ الأمة، في زمنٍ تنكّرت فيه المجتمعات لقيمها، وتزاحمت فيه الأصوات، وغرق الناس في ضجيج الباطل حتى كادوا يفقدون السمع.

لا يكفي أن تعرف طريق الله، بل يجب أن تدلّ غيرك عليه. لا يكفي أن تنجو بنفسك، بل ينبغي أن تُمدّ يدك لمن يتعثّر، وتُنير عيون من أُطفئت بصيرتهم. التواصي بالحق هو أن تقول: لا، حين يُقال للباطل نعم. أن تقف، حين يركع الناس للظلم. أن تظلّ

مستقيمًا، حين ينحني الآخرون في مواطن الانحراف والتزييف. أن ترفع صوتك، لا لتعلو على الناس، بل لتُحيي فيهم صوت الله.

وفي زمن تتكالب فيه الفتن، وتتبدّل فيه المفاهيم، ويُشوَّه فيه الدين حتى صار غريبًا في دياره، يصبح التواصي بالحقّ واجبًا لا خيارًا، وموقفًا لا شعارًا. هو أن تحضر في ميدان الصراع لا متفرّجًا، بل جنديًّا لله، مبلغًا عن رسالته، محاميًا عن دينه، ناصرًا لأوليائه، شامخًا في زمن الهزائم، واثقًا في زمن الاضطراب، ثابتًا كالجبل وإن انهدّت من حولك الجبال.

وهذا التواصي لا يكون بكلامٍ عابر، بل ببيانٍ حيّ، وولاءٍ ظاهر، وتمسّك صلب بوليّ الله في كل زمان، وخصوصًا في زمان الغيبة، حين يُختبر الناس على قدر ولائهم. التواصي بالحق لا يُدارى فيه أحد، ولا يُساوَم عليه، بل هو علامة انتماء، ودليل صدق، وسلاح في معركة الوعي.

وفي مدرسة الحسين عليه السلام، نرى هذا التواصي وقد بلغ قمّته، حين تحوّل الإمام صلوات الله وسلامه عليه إلى صرخة في وجه الانحراف، لا ليدفع ظلمًا عن نفسه فقط، بل ليقيم حجّة الله على الأمة. لم يكن الحسين صلوات الله وسلامه عليه رجل عزلة، ولا متصوّفًا يكتفي بالبكاء على الدين، بل كان مشروعًا حيًّا للتواصي بالحق. خرج من المدينة لا هروبًا من البطش، بل دعوةً صادقة إلى الإصلاح. نادى في الناس، وخطب، وكتب، وأرسل الرسل، وتحمّل التشويه، ثم ختمها كلها بدمه، ليكتب

بوضوح: إنّ الحق لا يُحمى بالسكوت، ولا يُحيا بالتأجيل، ولا يُصان بالمجاملات، بل يُحمى بالتضحية، ويُحيا بالثبات، ويُصان بالعزيمة.

فمن أراد أن يكون من المستثنين من الخسران، فعليه أن يُجاهد، لا فقط في نفسه، بل في ضمير أمته. عليه أن يُبلّغ، ويُربّي، ويُصلح، ويُرشد، ويُذكّر، وأن يكون صوتًا نقيًّا لله في عالمٍ غرق في الأصوات المزيّفة.

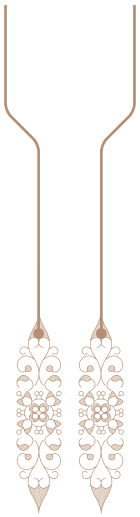

رابعًا: التواصي بالصبر – الحصن الحصين في زمن الفتنة

حين يحمل الإنسان مشعل الحقّ في زمن الغفلة، ويقف على عتبة النور في عصرٍ يعبد الظلال، فلا بدّ أن يُواجَه، ولا بدّ أن يُمتحن. فالطريق إلى الله لم يكن يومًا مفروشًا بالزهور، بل كان دائمًا محفوفًا بالأشواك، مزروعًا بالابتلاءات، مشحونًا بالعقبات. وحامل الحقّ في قلبه لا بدّ أن يُبتلى في جسده، في كلمته، في غربته، في صموده، في أهله وأقرب الناس إليه. حينها، لا سلاح أنجع، ولا درع أحكم، من الصبر.

لكن الصبر هنا ليس انكسارًا صامتًا، ولا تحمّلاً خانعًا يخفي داخله الغضب واليأس، بل هو طاقةٌ روحية عظيمة، ومقاومة باطنية لا تلين، وهو وقوف ثابت في وجه الأعاصير، وتسليم عارفٌ بوعد الله، لا استسلامًا للعجز، بل إيمانًا بالحكمة. الصبر هو جوهر الإيمان حين تُنتزع منه كل الحمايات، والحقّ حين يُرمى في الميدان بلا أنصار، والعمل حين يُقابل بالجحود، والانتظار حين يطول حتى تتكسّر الأعمار على ضفافه.

ولذلك، جاء التواصي بالصبر كآخر لبنة في بناء النجاة، لا لأنه الأقل أهمية، بل لأنه الأقسى تحققًا. فالناس قد تؤمن، وتعمل، وتدعو، لكنهم ينهارون عند أول موجة من الأذى، أو أول خسارة، أو أول شعور بالخذلان. هنا يأتي التواصي بالصبر كنداء دائم، يُردّد في النفس ويُغرس في القلوب، ليقول للذاهبين في درب الله: إن الطريق طويل، لكن النهايات نور، وإن الحقّ مُثخنٌ بالجراح، لكنه منصور، وإن الإمام المنتظر وإن طال غيابه، فإن وعد الله لا يُخلف .

التواصي بالصبر هو تواصٍ بالثبات حين تتزلزل الأقدام، وهو صوت الإيمان حين تُكمم الأفواه، وهو يد الأخ لأخيه تشدّ على يده وتقول له: لا تتراجع، الطريق واحد، وإن طال، فغايتُه الله. هو أن نُذكّر بعضنا بأنّ الغربة قدر السالكين، والابتلاء ميراث الأنبياء، والفتنة سنة لا تنقضي، لكن النجاة ليست لمن نجا بنفسه، بل لمن صبر وثبت واستقام حتى النهاية.

وفي كربلاء، حيث بلغت الفتنة ذروتها، تجلّى هذا الصبر في أقدس معانيه، حتى صار مدرسة خالدة في الثبات على الحق. هناك، لم يكن الصبر مجرد تحمل للجراح، بل كان ترقّيًا في المقام، وسموًّا في الوجدان، وتجليًا لعظمة الروح حين لا تبقى في الجسد قوة. وكانت العقيلة زينب عليها السلام هي الصوت الأنثويّ الأعظم للصبر الرسالي، حين وقفت بين يدي الظلم والجراح، وقالت كلمتها التي خُلدت في التاريخ: «**ما رأيتُ إلا جميلًا**»،

لتُعلّمنا أن الصبر ليس أن تبتلع الألم، بل أن ترى ما وراءه، أن ترى يد الله في عمق المأساة، وأن تظل على يقين، حين يتزلزل اليقين من حولك.

الصبر في مدرسة أهل البيت عليهم السلام ليس حالة نفسية سلبية، بل هو عبادة، وموقف، ووعي، وولاء لا ينكسر أمام العاصفة. وهو اليوم، كما كان بالأمس، الحصن الذي يُحفظ فيه الإيمان، والسياج الذي تصان به الدعوة، والنور الأخير حين تطفأ كل الأنوار

سورة العصر: خارطة خلاصٍ في زمن الغيبة

ليست سورة العصر مجرّد آيات قصيرة يُردّدها اللسان على عجل، ولا هي خطاب أخلاقيّ عابر يُلقيه القرآن على مسامع الغافلين، بل هي نداءٌ ربّانيّ خالد، يُكتَب على جبين الزمن، ويُصاغ كأشدّ بيانات الهدى اختصارًا وعمقًا، لتكون خارطة خلاصٍ في أكثر الأزمنة ظلمة، وأشدّها فتنة: زمن الغيبة.

إنها سورة تنبض بكلّ ما يحتاجه المؤمن ليبقى واقفًا حين تميل الجبال، وليمشي بثباتٍ في زمنٍ كثُر فيه السقوط، وتكاثر فيه المضلّلون، وتبعثر فيه صوت الحقيقة. وهي، في بناءها الربّاعيّ البسيط والعميق، تُقدّم للمنتظرين وصفة النجاة الكاملة، لا على هيئة تنظير نظريّ، بل كعهدٍ رساليّ، يرسم ملامح المؤمن الذي يريد أن يكون من أصحاب العصر الإلهي القادم.

فهي تبدأ بدعوة الإنسان إلى أن يؤمن، لا بالإيمان الموروث الجامد، بل بالإيمان الواعي، العارف، المتجذّر في التوحيد، والممتدّ إلى النبوّة، والمستنير بالولاية، والمتلهّف للوعد، والمترقّب للقيادة الإلهية التي غابت عن الأنظار، لكنها لم تغب عن الوجدان. ثم تُطالبه بأن يُترجم هذا الإيمان إلى عملٍ صالح، حيّ، متفاعل، لا يجلس على رفوف التنظير، بل يُثمر في الواقع، ويغيّر، ويُصلح، ويُقيم القسط.

ثم ترفعه إلى مرتبة أسمى، حين تقول له: لا تُنجِّ نفسك وحدها، بل احمل هذه الرسالة، وادخل بها ميدان الأمة، وكن جنديًا لله في ساحة الدعوة، داعيًا إلى الحق، ناصرًا للهدى، رافضًا للمنكر، ثابتًا على الولاية، منخرطًا في المعركة الفكرية والروحية التي تُزاحم فيها الأصوات، ويكاد ينطفئ فيها صوت الحق.

لكن الطريق طويل، ومكلف، ومُتعب، فالسورة لا تُختم إلا بالتواصي بالصبر، كأنها تُخبرك أن الصبر ليس هامشًا، بل هو شرط الاستمرار، ووقود الانتظار، وروح الثبات في لحظةٍ يصبح فيها الثبات أعظم الجهاد. فلا يكفي أن تصبر، بل أن تُوصي غيرك به، وأن تُبقي جذوة الأمل مشتعلة في قلبك وقلوب الآخرين، حتى يكتمل الوعد، وتشرق شمس الفجر الموعود.

وهكذا، تُصبح سورة العصر – لمن قرأها بعين المنتظر، لا بعين الغافل – بمثابة «**بيان تمهيدي**» للظهور، ومنهجًا تربويًا دقيقًا يُعيد بناء الفرد المؤمن ليكون من الوجوه التي تضيء في ظلمة

الفتنة، وتتهيّأ لتلبية النداء إذا ارتفع: «**يا أهل العالم، إن جدّي الحسين قُتل عطشانًا**».

فمن أراد أن يكون من أنصار القائم عليه السلام، فليحفظ سورة العصر في قلبه لا فقط في حافظته، ولينقشها على سلوكه لا على جدران المساجد، وليجعلها نهجًا يوميًا، لأنه بها وحدها، تُستعاد البصيرة، وتُبنى النفوس، وتُكتب الأسماء في سجلّ أصحاب العصر القادم، عصر العدل الإلهيّ والخلاص الكبير.

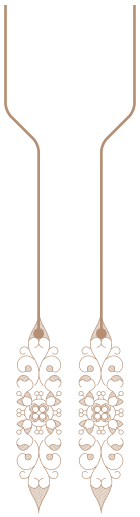

خاتمة الكتاب

سورة العصر... من زمن الخسارة إلى عصر الظهور

ها نحن نقف على عتبة هذا السفر المبارك، وقد طوينا صفحات رحلتنا التأملية في أبعاد سورة العصر، تلك السورة التي لا تقف على حدود الإيجاز اللفظي، بل تتجاوز حروفها القليلة لتبلغ من المعاني ما لا تبلغه المجلدات. إنها ليست مجرد سورة من ثلاث آيات تُرتّل في العبادات، بل هي مفتاح من مفاتيح الوجود، وبوصلة للبشرية الحائرة، وخارطة خلاص للإنسان الضائع بين التيه والهداية، وبين الخسران والانبعاث، بين فراغ الزمن وظلّ الوعد الإلهي المنتظر.

سورة العصر ليست كلامًا يُقرأ، بل عهدًا يُحمَل، ووصيةً سماويةً كُتبت على جبين الإنسان وهو يخوض امتحانه في الزمن. إنها تختزل في سطورها القليلة ملحمة الحياة بكاملها: كيف يبدأ الإنسان، وأين يضل، ومتى ينجو، ومن هم الذين اختارهم الله للخلود في سجلّ الفائزين. هي ليست دعوة عابرة، بل نداء متجدد

في كل زمن، لكل روح تبحث عن النور، لكل عقل يفتش عن البوصلة، ولكل قلب يئنّ تحت وطأة الفتن، ويشتاق إلى الفجر.

لقد عرّجنا في هذا الكتاب على خمسة معانٍ محتملة لـ«**العصر**»، ووجدنا في كل معنى منها بابًا يفتح على أفقٍ من التأمل، وشرفة تطلّ على وادٍ من المعاني العميقة. فمررنا على الزمن الذي لا يعود، وعلى لحظة النضج الحضاريّ، وعلى شقاء الكدح الإنساني، وعلى حقبة الامتحان المستمرّ... حتى وصلنا إلى المعنى الأشدّ تأججًا بالعقيدة، والأكثر التصاقًا بروح السورة: عصر ظهور القائم من آل محمد (عجّل الله فرجه الشريف)، باعتباره عصر انكشاف الحق، وتجلي الوعد، وتمام الكلمة الإلهية العليا.

ولم تكن هذه المعاني عبثًا مبعثرة، بل كانت تندمج وتتماسك لتنسج لنا رؤية شمولية، تنقل سورة العصر من كونها نصًا تعبّديًا، إلى كونها مشروعًا حضاريًا بامتياز، مشروعًا لا ينفصل عن الواقع ولا عن التاريخ، بل ينحت مساره في صخر الزمن، ويدعو الإنسان لأن يكون مشاركًا فعّالًا في إعادة رسم وجه العالم.

لقد انطلقت السورة بنداء الإنذار: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾، لكنها لم تتركه هناك، بل مدت إليه حبل النجاة، مرسومًا بأربعة أركان: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. هذه ليست مفردات وعظية، بل أركان الوجود، وجسور العبور، ومحاور بناء الإنسان الكامل، والفرد الرسالي، والمجتمع المنتظر. كل ركن منها يُشيد جدارًا في قلب الإنسان، ليقيه عواصف

الفتنة، ويؤهله لأن يكون لبنة في صرح الظهور، لا رقماً في قائمة الخاسرين.

وتأملنا كيف أنّ الإنسان ليس مجرد منساق في تيار الزمن، بل هو من يُشكّل الزمن، من يكتبه بحبر قراراته، ومن يخلّده أو ينساه بمدى وفائه لعهد الله. فليس الخسران خسرانَ أيامٍ تنقضي، بل خسران الإيمان، وخسران البصيرة، وخسران العزيمة على مواصلة الطريق. وليس النجاة أمنية، بل صناعة يومية، تبدأ من يقين، وتمتد إلى عمل، وتكتمل في صبر، وتثمر في فجر.

وفي قلب هذه الرحلة، يبرز المعنى الخامس كخاتمة المعاني، لا بوصفه نهاية، بل كذروة التأويل: فـ«**العصر**» هنا هو العصر الإلهي الذي يُعلن فيه القائم المنتظر حضوره، ليمسح غبار الظلم عن وجه الأرض، ويجعل من هذه السورة نبوءة قد تحققت، ورسالةً قد أُنجزت. هو العصر الذي يتحوّل فيه الصبر إلى نصر، والتواصي إلى أمة شاهدة، والإيمان إلى خلافة إلهية، والعمل الصالح إلى بناء عدالةٍ لا يطويها الزمان.

من هنا، فإن سورة العصر تُنادي كل من يقرؤها أن لا يقرأها بعين التلاوة فحسب، بل بعين الانتظار، وأن لا يكتفي بتأملها، بل أن يتقمّصها في سلوكه، ويجعل منها مرآته ومقياسه، ومنهج يومه ومشروع غده. إنها تقول لكلّ مؤمن: كن من أهل العصر، لا من أهل التراخي، كن من جنود الظهور، لا من أسرى الغفلة، كن ممن يسبقون الفجر بالعمل، لا ممن يتفاجؤون به وهم نائمون

على رصيف التاريخ.

وفي الختام، لا أقول إننا أنهينا الحديث عن سورة العصر، بل نقول: بدأنا بها رحلة لن تنتهي، رحلة الوعي، والعمل، والتكليف، والانتظار. رحلة التهيؤ ليومٍ يقول فيه القائم عليه السلام: «**أنا بقية الله في أرضه**»، وتكون سورة العصر آنذاك رايتنا في ميدان التمكين، ونداءنا في زمن النور، ومنهجنا في العصر الحقّ، عصر الله.

فلتكن سورة العصر مشعلنا في زمن الظلمات، وبرنامجنا في زمن الحيرة، وميثاقنا في زمن الغيبة، حتى ينجلي الستر، وتشرق الأرض بنور ربها، وتُعلَن نهاية الخسران، وبداية العصر الذي انتظرناه، عصر الظهور، عصر القائم، عصر انتصار الإنسان على العدم، وانتصار الله في أرضه.

والحمد لله رب العالمين.

والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

محتويات الكتاب

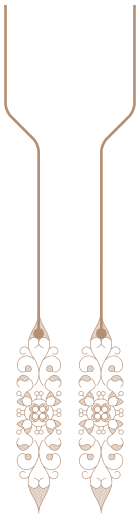

محتويات الكتاب

إهـــداء ٧

مقدمة الكتاب ٩

الباب الأول: القسم

أولًا: ما معنى القسم؟ ١٣

ثانياً: لماذا يُقسم الله سبحانه وتعالى ٢٠

ثالثاً: ما هو المُقسَم به؟ ٢٤

في عمق معنى «العصر» في سورة العصر ٢٨

الباب الثاني: العصر

أولًا: في مدار «العصر» بين اللغة والوحي ٣٥

المعنى الأول: «العصر» كزمنٍ مفصليّ ٣٧

المعنى الثاني:عصر» كعملية اعتصار وجودي ٣٩

آلة الزمن التي تعصر الإنسان ٤٢

الحياة كمصفاة، لا كعقوبة ٤٣
العصر الآن: زمن الإيمان المعصور ٤٣
القيامة: لحظة الاستخلاص الكبرى ٤٤
التربية المقاومة للعصر ٤٤
ختامًا: أنت في العصر... الآن ٤٥
المعنى الثالث: «العصر» هو عصر انبثاق الرسالة المحمدية ٤٦
المعنى الرابع: «العصر» بمعنى الزمان المطلق ٥١
المعنى الخامس: «العصر»
هو عصر ظهور القائم من آل محمد(روحي فداه) ٥٥
خلاصة وترجيح في ضوء المعاني الخمسة: ٦٠
ثانيًا: أهمية كل معنى من معاني «العصر» بالنسبة للإنسان: ٦٥
العصر بمعنى الزمان المطلق: ٦٥
العصر بمعنى وقت الضيق والاختبار: ٦٦
العصر بمعنى النضج وتمام القوام: ٦٧
العصر بمعنى فترة بعينها (عصر تاريخي أو حضاري): ٦٧.
العصر بمعنى عصر ظهور القائم من آل محمد عليه السلام: ٦٨..
خلاصة: ٦٨
ثالثاً: مسؤولية الإنسان تجاه المعنى ٧٠
مسؤولية الإنسان تجاه الزمن المطلق: ٧٠
مسؤولية الإنسان تجاه زمن الضيق والابتلاء: ٧١
مسؤولية الإنسان تجاه نضجه وتكامله: ٧١
مسؤولية الإنسان تجاه عصره وتاريخه: ٧٢
مسؤولية الإنسان تجاه عصر الفرج والعدل المنتظر: ٧٣

الباب الثالث: معنى الخسران

الخسرانان، والخطّ المستقيم بين الدنيا والآخرة ٧٧
الخسران في الدنيا: ثمن الانفصال عن الوحي..... ٧٧
أولاً: خسران الهدف من الحياة وسقوط البوصلة ٧٩
ثانيًا: خسران الطمأنينة والقلق الوجودي الدائم ٨٢
ثالثًا: خسران الوقت وضياع العمر في اللاشيء ٨٥
رابعًا: خسران البصيرة والانخداع ببهارج الحياة..... ٨٨
خامسًا: خسران العلاقات والإنسانية ٩١
الخسران في الدنيا: نظرة شاملة ٩٥
الخسران في الآخرة: المصير المهلك ٩٨
أولًا: خسران النفس وذهاب الذات إلى العذاب..... ١٠١
ثانيًا: خسران الأعمال وسقوط رصيد العبد..... ١٠٣
ثالثًا: خسران الشفاعة وذهاب وسيلة النجاة ١٠٦
رابعًا: خسران الجنة والدخول في الندامة السرمدية..... ١٠٨
خامسًا: الخسران الأبدي الذي لا رجعة بعده..... ١١٠
الخسران، والخطّ المستقيم بين الدنيا والآخرة ١١٣

الباب الرابع:
الركائز الأربع الواردة في الاستثناء الذي ورد في السورة

تمهيد ١٢١
الإيمان ليس اعتقادًا ساكنًا ١٢١
الإيمان هو البصيرة ١٢٢

الإيمان ولاء وولاية ١٢٣
الإيمان معرفة وصلة وعبودية ١٢٣
الإيمان، الحسين، والمهدي، ومشروع الخلاص ١٢٤
أولًا: الإيمان – النور الأول في وجه الخسران ١٢٦
ثانيًا: العمل الصالح – ثمرة الإيمان، وتجلي النجاة في ميدان الواقع ١٢٨
العمل الصالح: إيمانٌ يتجسّد في معارج الحياة..... ١٣٠
العمل الصالح: طريقُ الإنسان إلى الخلود ١٣٢
العمل الصالح: تشريع الارتباط بالنهضة والانتظار.... ١٣٣
العمل الصالح: منهجٌ متكامل لا لحظة عابرة ١٣٥
التواصي بالحق: قمّة من قمم العبودية ١٤٠
التواصي بالحق: تجذّرٌ في وجدان الأمة ١٤١
التواصي بالحقّ
في مدرسة الحسين عليه السلام والمهدي عجل الله فرجه ١٤٣
رابعًا: التواصي بالصبر – الثبات في ميدان الامتحان..... ١٤٧
التواصي بالصبر: المقاومة الداخلية أمام التحديات ١٥٠
التواصي بالصبر: العمق الروحي لمواجهة الابتلاء ١٥٣
التواصي بالصبر في مدرسة الحسين والمهدي عليهما السلام ١٥٥

الباب الخامس: خلاصة الأربع المنجيات

﴿وَالْعَصْرِ﴾: مشروع النجاة بين الإيمان والانتظار ١٦١
أولًا: الإيمان – البذرة التي تنبت فيها الحقيقة..... ١٦٤
ثانيًا: العمل الصالح – ثمرة الإيمان وتجسيده في الواقع ١٦٦
ثالثًا: التواصي بالحق – تحمّل الرسالة في ميدان الأمة ١٦٨

رابعًا: التواصي بالصبر – الحصن الحصين في زمن الفتنة ١٧١
سورة العصر: خارطة خلاصٍ في زمن الغيبة ١٧٣
خاتمة الكتاب ١٧٧
محتويات الكتاب ١٨١